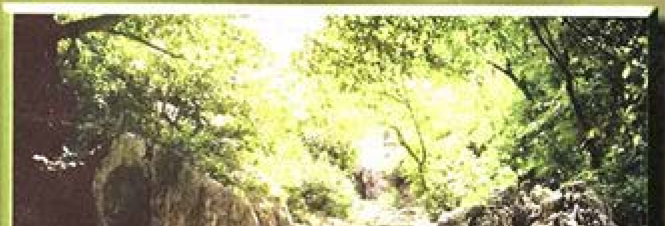
الإسلام حياة أفضل



المرجع الديني آية الله العظمى
السيد محمد تقي المدرسي

المرجع الديني

آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي

الإسلام حياة أفضل

الإسلام حياة أفضل
المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمدتقي المدرسي
الناشر: انتشارات محبان الحسين عليه السلام
الطبعة الثالثة - ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م
العنوان : قم المقدسة - شارع انقلاب - فرع ٤٧ - رقم ٥
ISBN : 964 - 7373 - 17 - 1

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

ما إن يلقي الإنسان نظرة عامة على تعاليم الإسلام، ويتعرف على مبادئه، ويعي بصائره.. تجده ينجذب إليه أشد الانجذاب. لماذا؟

لأن الإسلام يتعالى عن قيم الأرض إلى قيم السماء، ويترفع على حواجز المصلحة واللغة والعنصرية والقومية.. ويتشبّع بقوة الانطلاق والتقدم، والتطور والازدهار.. ولا يدنو منه التخلف والتردي.

أضف إلى ذلك، انه ليس نظرية بحتة، بل هو منهاج عمل، ودين حيـــاة.

ويخطأ من يتصور أن الإسلام نظرية غير قابلة للتطبيق، وإلاّ لما خاطب رب العالمين الناس بصورة عامة والمؤمنين بصورة خاصة، بما يدعوهم إلى صدق الحديث وأداء الأمانة ورفض الظلم والتسابق بالخيرات.. وإذا كان الإسلام لا يتجاوز حدود النظرية، لما تمكن من كسب زهاء ربع سكان الكرة الأرضية، حتى يكونوا مسلمين.

فمن يراجع تاريخ الإسلام، يجده قد ولد قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام، في منطقة صحراوية، تعاني من الفقر والحرمان، وتأن من التخلف والانحطاط، وتتألم من المرض والجهل.. وإذا بالإسلام اليوم يملأ ذكره اسماع العالم، وقد ترك أثره الايجابي على الأجيال تلو الأجيال، وليس على

المسلمين فحسب، بل حتى على الأمم الأخرى، مما مكنه أن يبسط نفوذه على كثير من بقاع العالم.

وهنا قد يتسائل البعض: اذا كان الإسلام هو هذا، فلماذا نحن المسلمين اليوم نعيش كل ألوان التراجع والتردي، فتجدنا موزعون على دول، ومقسمون إلى قوميات، ومنتمون إلى طوائف.. والاضطهاد نازل على رؤوسنا، والتشريد والقتل كأنه من نصيبنا فقط، وكلنا نعيش التيه؟

الجواب؛ إننا — بصراحة — ما وصلنا إلى هذا الحال، إلاّ بتراجعنا عن واقع الإسلام وحقيقته، حتى أصبح الإسلام بتعاليمه وارشاداته في واد، ونحن في واد.

فإننا — اليوم — لا نحمل من الإسلام إلاّ اسمه؛ إذ تجد الإسلام يدعو إلى العلم والمسلمون متشبثون بالجهل، والإسلام يأمر بالعدل والمسلمون منبطحون للجور، والإسلام يشجع على الانطلاق والمسلمون منكفئون منـــزوون..

صحيح نحن منتمون إلى الإسلام، ولكننا لم نأخذ بتعاليمه، ولم نلتزم بأحكامه، ولم نطبق منهاجه..

فلا يكفي أن يدعي أحدنا أنه مسلم، يؤدي الفرائض الواجبة من الصلوات والصيام والحج والزكاة.. فحسب، بل لابد أن نعيش الإسلام في واقعنا، ونحياه بحياتنا بكل تفاصيله.

وفي ذات الوقت يجدر بنا أن ننـــزع عن أنفسنا كل العادات الجاهلية، والممارسات السيئة.. عند ذلك نجد الإسلام بلسماً لكل جراحاتنا، حيث يرشدنا إلى حلول ناجعة لكل معضلة نعيشها، ويفتح لنا أبواب الفرج عن كل أزمة تحيط بنا..

وتبقى هذه الفرصة تنتظر من يغتنمها، لكي يفوز بحياة طيبة في الدنيا، وسعادة أبدية في الآخرة.

وهذا الكتاب انما هو إشارة على هذا الطريق، وهو عبارة عن مجموعة منتخبة من أحاديث سماحة آية الله السيد محمد تقي المدرسي، ألقاها في مناسبات عديدة، وقد تم إعدادها في هذا الإطار، بغية الاستفادة منها، والله من وراء القصد.

القسم الثقافي

في مكتب آية الله السيد محمد تقي المدرسي

٨/جمادي الأول/ ١٤٢٢ هـ

الإسلام في القرآن والسنة (١)

ما هو الإسلام؟

١/ الإسلام هو التسليم لله وحده (ونفي الشركاء، واتباع نهج الذين أمر الله باتباعهم). قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾ (النساء/١٢).

عن عثمان بن عيسى، عن عبد الله بن مسكان، عن بعض اصحابه، عن ابي عبد الله عليه السلام قال: قلت له ما الإسلام؟

فقال: دين الله اسمه الإسلام، وهو دين الله قبل ان تكونوا حيث كنتم، وبعد ان تكونوا، فمن اقر بدين الله فهو مسلم، ومن عمل بما أمر الله عز وجل به فهو مؤمن. (٢)

٢/ وكان إبراهيم هو المثل الأول للاسلام (حيث رفض الشرك وتوجه إلى الله وحده)، حين قال الله تعالى عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَآ أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الانعام/٧٩).

---

(١) هذا البحث هو فصل من كتاب التشريع الإسلامي، مناهجه ومقاصده، الجزء السادس، للسيد المؤلف ثبتناه هنا رجاء لتعميم الفائدة.

(٢) بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٢٥٩، رواية رقم ١٦.

٣/ وهذا التوجه إلى الله، والتسليم التام له جعل إبراهيم فوق العصبيات الدينية، وجعل أولى الناس به التابعين لنهجه (في توحيد الله واخلاص العبودية لله). قال الله تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾** (آل عمران/٦٧-٦٨).

٤/ وقد سمى إبراهيم عليه السلام هذه الأمة المرحومة بالمسلمين (لأن توحيدهم واخلاصهم لله قد تجلى في اتباعهم لكل الانبياء)، لأن صفات الموحدين تجلت فيهم من الجهاد في الله حق الجهاد، وأن دينهم يسر لا حرج فيه، وأنهم شهداء على الناس (كما الرسول شهيد عليهم في تطبيق الدين) وأنهم يقيمون الصلاة، ويؤتون الزكاة ويعتصمون بالله (فيتّحدون بالاعتصام بكتاب الله ورسوله ثم خلفاء الرسول). قال الله تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وءَاتُواْ الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللـــه هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾** (الحج/٧٨).

الأنبياء أول من أسلم

١/ وإنما اصطفى الله تعالى أنبياءه. وأتاهم علما وحكما، وأمر الناس بطاعتهم وجعل إتباعهم شرط حب الله، لأنهم أسلموا. (وحين يبين تطبيق الأنبياء للتوراة وحكومتهم بها يصفهم بالإسلام)، فقال الله تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة/٤٤) .

٢/ وحين سأل الله تعالى رسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً: ءأنت قلت للناس إتخذوني وأمي الهين من دون الله؟ تبرء عيسى من ذلك وأعلن دعوته إلى الله وحده، وقال الله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَآ أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ (المائدة/١١٧).

٣/ وقد هدى الله النبي محمداً صلى الله عليه وآله إلى الحنفية الابراهيمية (وكان أول من أسلـــم). قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الانعام/١٦١).

لماذا الإسلام

١/ لقد خلق الله الخلق بالحق، والحق هو ما فطر عليه البشر، والتسليم له تسليم للحق وفطرته، (وأما الاسماء التي تدعى من دون الله فهي ضلالة باطلة) قال الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الروم/٣٠) .

إنه فطرة الناس، بالرغم مَن إنهم لا يعلمون، أن فيه قوة الفطرة، وجمال الفطرة، وحب الفطرة، واستراحة كل قلب إلى الفطرة. ولكن أكثر الناس لا يعلمون، فلا يومنون (اتباعاً لهوى أو حمية أو بسبب الجهل والغفلة).

وهكذا العودة إلى الحق والفطرة هي التي تدعو الإنسان إلى التسليم للدين القيم وللحنفية الخالصة، وبالتالي للاسلام.

٢/ ويضرب القرآن الكريم مثلا على تلك الحنفية البيضاء، بعدة الشهور عند الله، التي تتفق مع خلق الله، أليس الله قد خلق السماوات والأرض بالحق؟ قال الله تعالى: **﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾** (التوبة/٣٦).

فالدين القيم هو دين الله الذي كان على خلق السماوات والأرض، فإذا كان حساب الخلق على أساس اثني عشر شهرا كيف يمكن تبديله؟ وهل يمكن تبديل خلق الله؟ وإنما يظلم نفسه من يخالف الخلق الأول.

٣/ والذين يعبدون من دون الله شركاء (ويخالفون الدين القيم وهو الإسلام الخالص لله) إنهم يعبدون أسماء لاحقيقة فيها، لأن الحاكمية التامة لله وحده، (لا للأسماء التي يشركون بها). قال الله تعالى: **﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ اللهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** (يوسف/٤٠).

٤/ والدين القيم (المتمثل في التسليم لله ورفض الشركاء) ضمان خلاص البشر من عذاب الاخرة، قال الله تعالى: **﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾** (الروم/٤٣).

بصائر الآيات

١/ الإسلام هو التسليم لله وحده، وهو دين الله من قبل ومن بعـــد،

وهو الحنفية البيضاء التي لا شرك فيها، وهو فوق العصبيات الدينية والعرقية وكل الحميات الجاهلية، وهو الشهادة على الناس (والتي ذروتها الجهاد في سبيل الله).

٢/ والانبياء أسلموا لله (فنالوا درجة الشهادة على سائر الناس). والإسلام دين الفطرة البشرية التي لا تبديل لخلق الله فيها، وهو الدين القيم الذي لا يقبل الله غيره.

فقه الآيات

١/ على الإنسان ان يجاهد نفسه حتى يحقق أسمى درجة من التسليم لله، وإتباع نهج النبي ابراهيم عليه السلام في الحنفية الطاهرة من الشرك الظاهر والخفي (كعبادة الطاغوت أو الرياء للناس).

٢/ حركة المسلم، والمجتمع الإسلامي دائبة في تحقيق مرضاة الخالق، وضمن حدود دين الله، كما هي حركة الكائنات جميعا. فما من عمل ولا قول ولا موقف إلاّ ويستمد شرعيته من مدى استقامته على خط التوحيد. أما الاهداف الاخرى فلابد أن تقاس بمدى توافقها مع الوجهة الالهية، ولا شرعية لأي اسم من الأسماء.

٣/ ولا شعار ولا شعيرة، إلا بمعيار تلك الوجهة، وعلى الإنسان أن يحطم دائما الاصنام التي تختلق عنده، والتي كسبت شرعيتها في البدء من توحيد الله تعالى، ثم اصبحت معبودة من دون الله، حيث اعتقد البشر شرعية خاصة بها كاليهودية والنصرانية، وكالقومية والعنصرية، وكالأسماء الأخرى التي يخترعها كل حزب، وكل جماعة ثم تصبح أصناماً تعبد من دون الله تعالى.

٤/ على المسلمين - كافة - ألاّ يجعلوا تجمعهم ذات شرعية مستقلة عن أهدافهم (كما فعلت اليهود في التاريخ وحتى اليوم، فضلوا عن الهدى وأجرموا بحق غيرهم)، بل شرعية الامة الإسلامية مستمدة من رسالتها التوحيدية وشهادتها على الامم في تطبيق دين الله القويم، وفي اقامتها للصلاة وإيتاءها للزكاة، واعتصامها بالله سبحانه وحده. فإذا لم تتحمل هذه الرسالة، فهي غير مشروعة.

٥/ وعلى القيادات التي تحكم باسم الدين ألا تجعل أنفسها ومصالحها فوق شرعية الدين، ولا تدعو الناس إلى ذواتها، بل تدعو إلى الله وحده، وتكون هي أول من تسلم لقيم الحق، وتخضع لمعايير الدين.

في رحاب الأحاديث

١/ قال أمير المؤمنين عليه السلام: لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبه أحد قبلي ولا ينسبه أحد بعدي؛ الإسلام هو التسليم، والتسليم هو التصديق، والتصديق هو اليقين، واليقين هو الأداء، والأداء هو العمل. إن المؤمن أخذ دينه عن ربه، ولم يأخذه عن رأيه. أيها الناس دينكم دينكم، تمسكوا به لا يزيلكم أحد عنه، لأن السيئة فيه خير من الحسنة في غيره، لأن السيئة فيه تغفر، والحسنة في غيره لا تقبل. (١)

٢/ عن الإمام الصادق عليه السلام قال: أثافي الإسلام ثلاثة: الصلاة، والزكاة، والولاية، لا تصح واحدة منهن إلاّ بصاحبتيها. (٢)

٣/ عن سليمان بن خالد، عن أبي جعفر (الإمام محمد الباقر) عليه

---

(١) بحار الأنوار، ج ٦٥، ص ٣٠٩، رواية رقم ١.

(٢) المصدر، ص ٣٣٠، رواية رقم ٥.

السلام قال: ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعه، وذروة سنامه؟ قلت: بلى جعلت فداك، قال: أما أصله، فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنامه الجهاد ثم قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير؟ قلت: نعم جعلت فداك، قال: الصوم جنة من النار، والصدقة تذهب بالخطيئة، وقيام الرجل في جوف الليل يذكر الله، ثم قرأ " تتجافى جنوبهم عن المضاجع ". (١)

٤/ قال أمير المؤمنين عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ان الله خلق الإسلام فجعل له عرصة، وجعل له نورا، وجعل له حصنا، وجعل له ناصرا؛ فأما عرصته فالقرآن، وأما نوره فالحكمة، وأما حصنه فالمعروف، وأما انصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا. فأحبوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم فإنه لما أسري بي إلى السماء الدنيا فنسبني جبرئيل عليه السلام لأهل السماء استودع الله حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة، فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة. ثم هبط بي إلى أهل الأرض، فنسبني إلى أهل الأرض فاستودع الله حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمتي. فمؤمنوا أمتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أن الرجل من أمتي عبد الله عز وجل عمره أيام الدنيا، ثم لقي الله عز وجل مبغضاً لأهل بيتي وشيعتي ما فرج الله صدره إلاّ عن نفاق. (٢)

٥/ عن ابي جعفر محمد بن علي بن الحسين، عن أبيه، عن جده قال: لما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله مناسكه من حجة الوداع ركب راحلته وأنشأ يقول: لا يدخل الجنة إلاّ من كان مسلماً. فقام إليه أبو ذر

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص ٣٣٠، رواية رقم ٦.

(٢) المصدر، ص ٣٤١، رواية رقم ١٣.

الغفاري رحمه الله، فقال: يا رسول الله وما الإسلام؟ فقال صلى الله عليه وآله: الإسلام عريان، ولباسه التقوى، وزينته الحياء، وملاكه الورع، وكماله الدين، وثمرته العمل، ولكل شيء أساس وأساس الإسلام حبنا أهل البيت. (١)

(١) بحار الأنوار، ج٦٥، ص ٣٧٩، رواية رقم ٢٧.

الفصل الاول

الإسلام حياة مثلى

الإسلام دين الحياة

الإسلام؛ دين الحياة والمستقبل، دون أدنى شك. فحينما تفشل الأنظمة والمبادئ وجميع الفلسفات البشرية في منح الإنسان مُثلاً عليا، وحينما تعجز عن رسم سياسات مثلى لحياة البشر فوق الأرض، وتفشل أيضاً في ضمان تحقق التطلعات الإنسانية.. في ذلك اليوم يأتي البشير النذير والمنقذ الأخير، سيدنا ومولانا الحجّة بن الحسن المهدي الموعود عجّل الله فرجه الشريف ليحمل راية جدّه رسول الله صلى عليه وآله وسلم، فينشر العدل في كلّ مكان، فيعرّف الناس المصداقية الكبرى للحياة وجوهرها.

رسالة الحياة

لم يُبعث الرسول الأكرم ليبشر الناس بالموت والعجز والفقر والظلم والدكتاتورية والطبقية والعنصرية وسائر الظلمات التي كانت شعاراً مرموقاً في زمن الجاهلية الأولى، بل كانت رسالة النبي المصطفى رسالة الحياة بكل معانيها الإيجابية والصالحة؛ الحياة فوق البسيطة، والحياة غداً في جنان الخلد لدى الرفيق الأعلى.

وقد أمر القرآن الكريم أتباعه بالقول: **﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾** وقال صلّى الله عليه وآله وسلم: "من لا معاش له لا

معاد له". فالحسنات في الحياة الأولى وسيلة الوصول إلى المقام الأحسن في الحياة الآخرة، وقد دعا الله تعالى المؤمنين إلى التطلع إلى هذه الحقيقة، وإلى هذا الجوهر بالقول الكريم: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وأن ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

بين الجاهلية والإسلام

إنّ الفرق الرئيسي بين رسالات الله وبين المبادئ الوضعية المصاغة من قبل التصورات البشرية ووساوس الشيطان؛ إنّ رسالات الله صادرة عن خالق الكون، وإنها تمتاز بالشمولية. في حين أنّ القوانين والنظريات الوضعية تحاول وتسعى إلى تبرير الأهواء والشهوات، وتغليفها بأغلفة أول صفاتها الكيد والخداع..

فإنك إذا طالعت الفلسفة اليونانية عموماً، ستجدها قائمة على أسس العنصرية ومصبوغة بصبغتها. فهي -دون ريب- متأثرة أولاً وآخراً بطبيعة الأرض والمجتمع الصادرة عنهما. ولعل المجتمعات والشعوب والحضارات الأخرى التي حاولت اقتباس الفلسفة اليونانية والتشبث بها، قد عانت ما عانت، ودفعت الثمن غالياً، إذ هي لم تأخذ بالحسبان نقاط التفاوت والافتراق بين طبيعتها وثقافتها وتقاليدها، وبين ما تمتاز الأرض والمجتمع والتاريخ في اليونان، هذا بغضّ النظر عن مدى صلاحية ومصداقية أو عقم هذه الفلسفة.

ولنأخذ مثالاً آخر من تأريخنا الحديث؛ وهو الثورة الفرنسية، إذ لم تكن سوى تجسيد مباشر لتطلعات الشعب نحو الحرية والديمقراطية. ففعل

المنتصرون ما فعلوا، وسقطت الملكية الفرنسية فحسب. ولا يمكن بحال من الأحوال أن نسمي هذه الثورة بالثورة العالمية، فما هي إلاّ ثورة فرنسية اقتصرت على بقعة جغرافية محدودة في زمن محدود، انتهت إلى الإحساس بضرورة خضوع الشعوب الأخرى للسلطة الفرنسية الجديدة. فكانت الصراعات الاستعمارية وإبادة الشعوب وانتهاك الحرمات والمقدّسات. وقد أثبتت لنا التطورات، واثبت لنا التاريخ كيف عجزت المجتمعات المبهورة بهذه الثورة عن اقتباس مبادئ الثورة الفرنسية وتطبيقها لها، وكيف أنّها -تلكم المجتمعات- عجزت حتى عن التمسك بأصالتها، ففقدت الفرصتين، فحلّت فيها الفوضى واستلاب العقل.

ولكنّ مبادئ الرسالة وبصائر الحق التي جاءت في القرآن الكريم وعلى لسان النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، لا تتأثر بالأرض أو الحتميات التأريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقومية والعنصرية، بل إنّها تهدف إلى خلق إنسان وواقع جديدين، مع احترام كل ما هو إيجابي لدى العقل الإنساني والفطرة البشرية المجردة، التي هي من نعم الله العظيمة.

ذلكم دين الله

فالنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم حينما كان يخاطب أحد المسلمين الأوائل ويقصد جذبه إلى الدين، كان يعني بالخطاب الإنسان أينما كان، ومتى كان. وإن رسالة الله التي أوحيت إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غار حراء الصغير المساحة، لم يكن من طبيعتها أن تكون محدودة بمساحة الغار، ولا بجبل النور، ولا بمكّة المكرمة،ولا بالجزيرة العربية، ولا بزمن دون زمن، بل كانت رسالة عالمية تاريخية مطلقة. وهذا

-لعمري- من أوّل الأدلّة على كونها رسالة إلهية؛ ولو كانت من صنع مخلوق، لتأثّرت بصفاته، كالمحدودية بنطاق الزمن والمكان والعنصر، ولكنها كانت رسالة الله إلى الناس جميعاً.

ومن البديهي والضروري الاعتقاد بأنّ الآيات الأولى التي جاء بها الأمين جبرائيل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، كانت تعبيراً متكاملاً لطبيعة الرسالة الإلهية بصفاتها وتكوينها المشار إليهما آنفاً.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

فالبدء يجب أن يكون باسم الربّ؛ الربّ الذي خلق الجميع. الرب الذي هو مصدر الكرم، فينهل الجميع منه دون استثناء. الرب الذي علم الجميع؛ الذين لا يعلمون شيئاً لولا أن يعلّمهم الله. الله الذي يعلمهم العلم، فيه يؤمنون، وإذ ذاك سيمزج العلم بالايمان، فيكون الإنسان خليفة لربه بهما بجدارة.

فرسول الله بُعث في مكّة التي كانت مركزاً تجارياً للجزيرة العربية المعروفة بجاهليتها وحروب عشائرها وقبائلها الطاحنة والوحشية، حتى أنّ حرباً من حروبها دامت حوالي ثلاثمائة سنة! كما كانت فيها التقاليد الغبية للغاية؛ كوأد البنات بداعي العار، وقتل البنين بداعي الفقر.. كما كان العرب إذ ذاك يعتقدون بأنّ من تكلّم بغير اللغة العربية فهو أعجمي، تماماً كما يطلقون على الحيوان لفظة الأعجمي.

نهج الانبياء

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعث في ظلّ هذه الأجواء الجاهلية

المقيتة، لتغيير هذه الأحواء، وليس للاستفادة منها. فأكد على عدم الفرق بين الناس، وأنّهم سواسية كأسنان المشط، وأنّ عدالة الرب وقوانينه هي الفيصل بين أولاد آدم.

وهكذا الأنبياء الآخرون، ولا سيما أولو العزم منهم، حيث كانت رسالاتهم تخاطب الإنسان لإنقاذه من كلّ دنس، والأخذ بيده نحو كلّ فضيلة..

لقد كانت مهمّتهم هداية البشرية إلى الاعتراف بالخالق وتوحيده، ومن ثم القيام ضد كلّ ما من شأنه الوقوف بوجه الإنسان، ومنعه عن التكامل وصياغة الحياة الصالحة والاستفادة منها.

ولذلك ما كان الأنبياء والرسل يولون الرأي العام الجاهلي أهمية تذكر، ولو كان من المقرر أن يتأثّروا بما يؤلّبه عليهم أصحاب القدرة والنفوذ، لما أصبحوا رسلاً أو أنبياء، بل لنقل إنّ ثبات أصحاب الرسالات السماوية كان أقوى من الضغوط مهما تصاعدت حدتها عليهم.

ولو كان نبي من الانبياء يأخذ برأي الأكثرية، لساوم وداهن وخنع لعروض الآخرين، ولرضي -مثلاً- أن يعبد الأصنام يوماً، وأن يعبد الكفار ربّه يوماً آخر. فحينما حاصر النبي الأكرم مدينة الطائف ثلاثة أشهر، حتى ضاق أهلها ذرعاً بالحصار، عرضوا عليه أن يعبدوا الله يوماً ويعبد هو أصنامهم يوماً، فيستسلموا له. ولكنّه رفض هذا العرض رفضاً مطلقاً، ممّا اضطرهم إلى التنازل والاعتراف بالله وبنبوته. فإذا كان الباطل يأخذ أشكالاً متعددة ومتفاوتة، فإن الحق يبقى حقاً وبصورة واحدة مطلقة.

هنا تكمن صعوبة حركة الأنبياء، حيث كانوا يقاومون أنواع التيارات الجاهلية الباطلة، التي تأخذ صور الحياة المتعددة، في حين إنها صور ميتة في الحقيقة.

فقد جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى سكان الجزيرة العربية بادئ بدء، وهم الذين اعتادوا القتل والفقر وشظف العيش، داعياً إيّاهم إلى الإيمان بالله ورسم سياسة الحياة ضمن أصول حيّة.. فهو دعاهم إلى السلم في وقت كانت الحروب تقتل حياتهم، ودعاهم إلى الأخوة والمساواة والعدالة.. بينما كان قانونهم الأوّل هو البقاء للأقوى كما قانون الغاب.

وبفضل الإسلام تحول مجتمع الجزيرة العربية إلى واقع رائع من القيم والاخلاق الفاضلة والسلوك الحسن.. قد لا يكاد يصدقه البعض. فمثلاً؛ بعيد انتهاء معركة من المعارك، أنبأ الرسول الأكرم بوجود بعض الجرحى من المسلمين في ساحة المعركة، فأمر بإيصال الماء إليهم، فحمل أحد المسلمين الماء إليهم، ولكنّه عندما أراد سقي الجريح الأول، قال له: إن هناك جريحاً أشد حاجة مني إلى الماء. ولما همّ الساقي باعطاء الماء إلى الجريح الثاني، قال له: إنّ مسلماً جريحاً على مبعدة مني أشدّ ما يكون إلى جرعة ماء. فنهض حامل الماء فلقي الإجابة نفسها من الجريح الثالث فالرابع، حتى وصل إلى تاسع الجرحى الذي قيل له إنّه يلفض أنفاسه الأخيرة، فوجده ميتاً. فرجع إلى الجريح الثامن الذي كان منذ قليل حيّاً فرآه قد استشهد.. وهكذا كان كلما يعود إلى من سبقه، يراه قد فاضت روحه، فاصبحوا -بذلك- مصداقاً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

الإسلام سبيل الخلاص

فأيّ نجاح عظيم هذا الذي حققه الرسول المصطفى بفضل خصوصيات الرسالة الإلهية، في ظل أجواء كانت حتى الأمس القريب نموذجاً لأبشـــع

أشكال القتل والفرقة والاضطهاد؟

إنّ قيم الرسالة التي حولت ذلك المجتمع، هي ذاتها قادرة على انقاذ البشرية اليوم. و-أنا- أؤكد على أن الإسلام هو دين المستقبل والحياة، لأن الجاهلية الحديثة ليست بأهون شراً من الجاهلية القديمة. إذ أنّ أكثر من مائتين وخمسين مليون طفل في العالم يستغلون أبشع استغلال في العالم، ويتعرضون لألوان العذاب والاضطهاد، حيث- لا تزال تجارة الجنس والرقيق قائمة. أما العنصرية والحصار الاقتصادي فهي على أوجها في عالم اليوم. أمّا سياسة منع العلم ونشر التقنيات الحديثة عن هذا البلد أو ذاك، فحدّث ولا حرج، حيث يتساقط الملايين من الضحايا جرّاء الجهل والتخلف. والدول الغنية تطلب الدول الفقيرة ما يزيد على مائتين وخمسين مليار دولار، وهذا المبلغ تشكل الأرباح النسبة الكبرى منه.

وهذه المآسي العالمية لا تزال في تصاعد متواصل، مادامت البشرية لا تسعى إلى التمسك بكتاب الله الخالد وسنّة النبي وأهل البيت عليه وعليهم الصلاة والسلام.

فالبشرية اليوم مدعوّة إلى العودة إلى الحياة، التي بشر الله سبحانه وتعالى عبده ورسوله الأكرم بها، حيث قال: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً * وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾**.

الإسلام هدى الحياة

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَآصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الانفال/٢٤-٢٦)

لكي يصل الإنسان إلى ذروة المعارف الإلهية السامية، عليه أن يتدرّج عبر معرفة حقائق الدنيا؛ فهو لم يخلق فيها إلاّ ليعرف ربه سبحانه وتعالى.

ولكن كيف يعرف هذا المخلوق الضعيف والمحدود ربه؟ وكيف يصل إلى معرفة الأسماء الحسنى لرب السماوات والأرض؟..

إنما يعرف المخلوق ربّه بواسطة ما يتجلى به في الطبيعة. فحينما يرى الجمال والنظام الدقيق والتدبير الفائق.. يهتدي إلى ذلك الجمال الأبديّ الخالد لرب العزة تبارك وتعالى. فهو حينما يرى القوة والهيبة في الجبال الشامخات، والامتداد في المحيطات الواسعات، والعظمة في عالم الفضاء والكواكب، فسيصل إلى شيء من أسماء الله الحسنى، وبالذات إلى اسم القدرة والعظمة.

فالإنسان يستطيع معرفة ربه وعظمته بواسطة النظر إلى آياته؛ ففي البحار عجائبه، وفي الجبال خزائنه.. وبهذه المعالم الفذّة يصل المرء إلى عالم الأنوار القدسية والأسماء الحسنى.

إذن؛ فوجودنا في هذه الدنيا ذو هدفٍ عظيم، ولا يمكن بلوغ الهدف إلاّ بالتدرّج، عبر اجتياز الماديات التي نعايشها حتى الوصول إلى المعنويات العالية.

فمثلاً؛ أنت قد تسأل: لماذا العطش والجوع؟ ولماذا الألم والمرض؟ ولماذا الفقر والفاقة؟ ولماذا الوحدة والغربة؟ ولماذا المآسي والمصائب؟

والجواب على كل ذلك؛ هو لأن الإنسان من دون هذه الحالات الطارئة التي تتناوب عليه يصاب بمرض الطغيان وجهل ربّه. فإذا عطش، قال: ربِّ اسقني. وإذا جاع، قال: ربِّ أشبعني. وإذا افتقر، قال: ربِّ اغنني. وإذا توالت عليه المصائب، جأر إلى الله جلّ وعلا كي يخفف عنه. وعلى ذلك؛ فإن الحكمة من وراء إصابة الإنسان بتلك الحالات الطارئة والمتطورة هي الارتفاع بهذا المخلوق إلى مستوى معرفة خالقه جلّ شأنه.

ولقد قال الصادق عليه السلام: إن جبرائيل عليه السلام أتى رسول الله صلى الله عليه وآله فخيّره، وأشار عليه بالتواضع، وكان له ناصحاً، فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يأكل أكلة العبد، ويجلس جلسة العبد تواضعاً لله تبارك وتعالى، ثم أتاه -جبرئيل- عند الموت بمفاتيح خزائن الدنيا فقال: هذه مفاتيح خزائن الدنيا بعث بها إليك ربّك ليكون لك ما أقلّت الأرض، من غير أن ينقصك شيئاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: في الرفيق الأعلى. (١)

---

(١) بحار الأنوار، ج١٦، ص٢٦٧.

وعن الرضا، عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: أتاني ملك فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إن شئت جعلت لك بطحاء مكة ذهباً قال: فرفع رأسه إلى السماء فقال: يا رب أشبع يوماً فأحمدك وأجوع يوماً فأسألك. (١)

إن الحكمة من إرادة نبي الإسلام ما أراد، لأنه يعرف بأن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى. أما الإنسان الذي يشبع ويجوع ويفتقر ويغتني ويمرض ويبلى، فهو في حالة دائمة من التواصل مع ربّ العزة سبحانه وتعالى. فإذا شبع حمد الله، وإذا جاع طلب الرزق من الله سبحانه أيضاً.

إن ربّنا تبارك وتعالى هو الذي أوجد هذه الطبيعة في نفوسنا نحن بني البشر، وهو الذي يبتلينا لنستحق بموقفنا من هذا الابتلاء العقاب أو الثواب، حتى لقد جاء في المأثور من الدعاء بهذا الصدد: "يا مَن دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملائمة كيفياته"(٢)؛ أي إنه الغني دائماً، بل هو مصدر الغنى، ونحن البشر فقراء في كل شيء، فحصل التفاوت بذلك بين الخالق والمخلوق.

ويقـــول أمير المؤمنين علي بن أبيطالب عليه السلام في خطبة بليغـــة جمعت تعاليم الرسل والأنبياء: إن الله خلق الجنة دار ضيافة وكرامة، وخلق النار دار عذاب، وجعل الدنيا بين الجنة والنار. يعني إن الدنيا شيء من هذه وشيء من تلك؛ صحة وسقم، وغناً وفقر، وشبع وجوع.

إن الهدف من الدين وعمل الأنبياء، هو أن يستمر الإنسان بالقـــول: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٩، ص٦٤.

(٢) مفاتيح الجنان، دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام، ص٦٠.

لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ﴾. (آل عمران/١٩٣)

فالنبي صلى الله عليه وآله جاء إلى مكة المكرمة ورأى ما عليه جموع الجاهلية من فقر ومرض وجوع وتخلف، فأراد أن ينقذهم من هذا الجحيم الذي هو صورة مصغرة لواقع النار في الآخرة، ويوفّر لهم حياةً طيبة فيها العز والصحة والشبع والعلم عبر إقامة دولته الإسلامية النموذجية، التي هي في واقع الأمر مثال لطبيعة الجنة التي وعد الله المتقين.

إن الله تبارك وتعالى يدعو الناس إلى الايمان ويحاجهم بالدليل المباشـــر والطبيعي على ذلك، فيقول عزّ من قائل: ﴿ لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ * إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُم مِن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِنْ خَوْفٍ﴾. (قريش)

والحديث الشريف يؤكد بأن "من لا معاش له لا معاد له" بمعنى أن من لا حظّ له في الحياة من حركة وحيوية صادقة، لايحقّ له أن يحلم بالنجاح في معاد الآخرة.

إن الآيات الآنفة الذكر من سورة الأنفال المباركة جاء فيها:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي إن دعوة الرسالة الإلهية ليست دعوة ميتة، وإنما هي دعوة حياة؛ الحياة بشطريها؛ الدنيوي والأخروي. وبكلمة؛ إن الله تبارك إسمه يريد من الناس أن يطهروا الأرض من دنس الذنوب والشياطين ليقيموا جنة في الأرض، تشوقهم وتدفعهم إلى جنة الخلد لديه سبحانه.

إن الإنسان من دون الإسلام يعتبر موجوداً ميتاً؛ ميتاً بقلبه وضميره وعلاقاته، إذ الإسلام هو الذي يمنح الحياة.

ولكن السؤال الكبير هو: كيف يمنح الإسلام الحياة للانسان؟

وقبل الاجابة على ذلك لابدّ من الاشارة إلى إن أصحاب الرسالة سواء في التأريخ القديم أو الحديث كانوا يدعون الناس -كل الناس - بصورة شاملة إلى اعتناق العناصر التي تكوّن الحياة الحقيقية. فهم يدعوهم إلى العزة والقوة والتقدم والنهضة والحرية والاتحاد، وهذه العناصر - كما لا يخفى - مجموعة ما يطلبه الناس ويرغبون فيه بفطرتهم ووجدانهم وواقعهم.

ولعلّ من أبرز الأمثلة على ذلك هو نموذج المصلح الإسلامي الكبير جمال الدين الأفغاني، هذا الرجل الذي كان ينطق باسم الإسلام المتجرد عن القوميات والجغرافيا وبقية الأمور الجزئية. فهو لم يتحدد بلقب يدل على قوميته، ولم يؤطر نشاطه بدولة معينة، حيث أظهر دعوته في أفغانستان وإيران ومصر والهند والسودان وفرنسا وتركيا، حتى أنه من الملاحظ أن مختلف الحركات الإسلامية في هذه الدول وغيرها لها علاقة صميمية بهذا المصلح الإسلامي. وهو أيضاً لم يقل للناس صلّوا فحسب، بل دعاهم بالاضافة إلى إقامة الصلاة إلى بناء حياتهم وقدراتهم وحضارتهم عبر التقدم العلمي والعزة الذاتية والوحدة الدينية والاجتماعية.

إن العديد من الحركات الاجتماعية حينما تحولت إلى حركة دينية ذات رسالة حياتية - رسالة في الحياة وما بعد الحياة - هذه الحركات تحولت إلى حركات تاريخية خالدة، وذلك لان المجتمع أو المجتمعات أدركت أن حياتها ومماتها متعلقان بهذه الحركة وهذا الوجود، لأن الإنسان يبحث عن المنقذ..

ولذلك؛ نرى أن الآية القرآنية من سورة الأنفال تؤكد على المؤمنين وتذكرهم في هذا الإطار، بنعمة الانقاذ التي أنعم الله سبحانه وتعالى بها عليهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ

يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إن القرآن يذكّرهم بنعمة رأوها بأم أعينهم، حيث كانوا قلّة قليلة بين الناس؛ بين الروم والفرس، كانوا بمثابة ثلة من اللاجئين إلى الصحراء القاحلة، فأنجاهم الله بفضله ورزقهم فتح البلدان؛ الواحد تلو الآخر، وأعطاهم القوة السياسية والعسكرية والحضارية.

الحياة والاستقرار

إن من أول مفاهيم ومصاديق الحياة؛ حياة القلوب، والقلوب لا تحيى مالم تكن متزنة ومستقرة. أما القلوب الخائفة والمترددة والمرتابة والمنهزمة، فهي ليست قلوباً حية أبداً. وتصور أن الإنسان يرى الكوابيس طيلة نومه؛ إنه لن يهنأ بهذا النوم، بل هو يحسد الميت على موته..

الدين الإسلامي أول ما يعطي الإنسان يعطيه الطمأنينة والسكينة والشجاعة، بمعنى أنه يجعل قلب المؤمن مثل الفولاذ وأقوى من الفولاذ "كزبر الحديد" و لذلك، فالمسلم لا يهاب الموت.

إن أصحاب الحسين عليه السلام هؤلاء الثلّة المؤمنة كانوا بالرغم من إخبار الامام الحسين عليه السلام لهم بأنهم سيقتلون جميعاً من قبل الجيش الأموي المقابل لهم، إلاّ أنهم كانوا يتحدون عدوهم – على الرغم من ضخامة جيشه – بالقرآن والدعاء ليلاً، وبالشجاعة والسيف نهاراً... وكان الواحد منهم يقول بكل سرور: إن هي إلاّ سويعات نقاتل هؤلاء ويقاتلوننا حتى نلحق بالرفيق الأعلى. فقلوبهم كانت مليئة بالسعادة والأمل والراحة والعطاء، لأنها كانت قلوباً مطمئنة.

ثم إن مثل هذه القلوب تستطيع مقاومة التحديات بصورة دائمة ومستمرة.

ومن هنا فإن الرعب والخوف كان يأخذ المشركين حينما يقابلـــون المؤمنين حال القتال، بل وقبل القتال، حتى أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يقول: "نُصرتُ بالرعب مسيرة شهر". (١)

إن الإسلام يعلّم الناس بأنّ الحياة ليست كلها تقدم وراحة ورفاه، بل فيها الكثير من المشاكل والكثير من المآسي، ويعلمهم أيضاً بأن من كان ذا قلب ضعيف فهو في تراجع وانهزام وانهيار. أما من كان ذا قلب مطمئن لحكمة الله تبارك وتعالى، ومطمئن إلى ضرورة تأدية الواجبات المتعلقة به، فهو بإمكانه أن يتجاوز بمجرد نطقه الواعي والعارف بعقيـــدة **﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾**..

إن الفرق بين النموذجين هو فرق الوجود والعدم، وباستطاعة المرء أن يختار ما يميته إلى الأبد، أو ما يحييه إلى الأبد.

الدين.. وحدة متكاملة

في نظرة استقرائية إلى تعاليم الدين نكتشف بأن هذه التعاليم هي عبارة عن وحدة متكاملة، الغرض منها تكميل شخصية الإنسان؛ بمعنى إن الله سبحانه وتعالى يعرف تمام المعرفة بأن الإنسان لو لم يتمسك مادياً وروحياً بكافة التعاليم فإنه سيصاب نفسياً وبدنياً بشتى أنواع الأمراض، وبالتالي يصبح غير مكتمل الحياة. ولذلك فإننا نرى في التعاليم في القرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة وسنّة أهل البيت عليهم السلام وحدة متكاملة تعالج كل هموم الإنسان ونقائصه وعيوبه، حتى ليقول الإمام أبو عبد الله

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٠، ص٢٧٧.

الصادق عليه السلام فيه –في القرآن –: "حتى الأرش في الخدش"، (١) والقرآن الكريم قال قبل ذلك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ (البقرة/٢٢٢). والنصوص الدينية الخاصة بتنظيف البدن والمظهر أكثر من أن تحصى، لأنها علامة على الصحة والسلامة. ثم إن الإسلام كثيراً ما كان يحرّض المؤمنين على أن يكونوا أقوياء حتى قال القرآن: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَااسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ﴾ وقال الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: "المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف". فالجسم السقيم لا يمكن أن يهنأ بالبيت وبالأكل وبالزوجة وبالأولاد و..

والتأريخ يؤكد بكل صراحة على إنه بمجرد انتشار راية "لا إله إلا الله" في الجزيرة العربية تفشت علائم الصحة والسلامة على كافة ربوعها، وهؤلاء الناس الذين كانوا قليلاً ما يغتسلون أضحى لديهم أكثر من خمسين غسلاً، بين غسل واجب وغسل مستحب، بالإضافة إلى السلامة في المأكل والمشرب، بعد أن كان ساكنو هذه المناطق لا يهتمون بما يأكلون أو يشربون من دماء ومياه غير صحية. والمدينة المنورة التي كانت معروفة بين المدن المحيطة بها بكثرة تفشي الملاريا، أصبحت واحة خضراء أبرز سماتها النظافة ومكافحة الأمراض.

وقد بدأ الناس يأكلون ويشربون هناء بما كرّسوه من جهود وتخطيط في الحقل الزراعي، فتضاعفت المساحات الخضراء عشرات المرات. ولو طبقت نفس الطريقة فيما يخص الأمن الغذائي التي طبقها المسلمون الاوائل برعاية الرسول الأكرم لما أصبح اليوم أكثر من مليارد انسان يعيشون تحت مستوى الفقر والجوع.

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٦، ص٢٢.

الإنسان ضمن المجتمع الإسلامي يستطيع العيش بكل رفاهية تحت مظلة الأمن القضائي العادل من دون أن يقلق على مصيره. فالمؤمن على المؤمن حرام، دمه وعرضه وماله.

في حين إن الأمن والحريات في المجتمع الغربي اليوم لا يعدو أن يكون أكثر من شعارات ومظاهر. الأمر الذي يدعونا أكثر من أي وقت مضى إلى التبشير بتعاليم الإسلام، وذلك عبر تجسيدنا لتعاليم الإسلام عملياً وشرحها تفصيلياً، دون الاكتفاء بالمواعظ الجامدة. فلا بد أن ندعو الناس إلى الحضارة الإسلامية بكل أبعادها.

والسبيل إلى ذلك هو تبشير الناس في مختلف بقاع الأرض إلى الحياة الحقيقية وتخليصهم من العادات السيئة، من قبيل ترك معاقرة الخمرة والمخدرات وتكريس التكافل الاجتماعي والاحساس بالمسؤولية.

إن الأمر الملفت للنظر هو أن المجتمعات الغربية هي نفسها بدأت تحس بتعاسة وضعها وفراغ فكرها، وذلك بعد أن جربت مختلف الأنظمة السياسية والفكرية، الأمر الذي يعتبر فرصة ذهبية لنشر تعاليم الدين الالهي الذي هو بحق النموذج المنقذ للبشرية جمعاء من المتاهة والموت...

إننا لا بد أن ندعو الشعوب الغربية إلى المحبة والعاطفة والحياة الطبيعية والحقيقية، ففي تعاليم ديننا الحنيف الكثير جداً من النصوص الخاصة بمثل هذه المواضيع، في حين أنهم - الغربيين - نسوا حتى تعاليم دينهم المحرف.

يجب أن نطبق تعاليم الدين الإسلامي على أنفسنا ثم نقول للآخرين بأننا نبشركم بحضارة العواطف النبيلة، وحضارة الايمان، وحضارة الجسد السليم والروح السليمة والعقل السليم والقوة والصلابة..

فالعاطفة النبيلة تخفف من الإنسان همومه، وتزيح عنه مشاكله اليومية نهائياً. أما معاقرة الخمرة -مثلا- فهي بالاضافة إلى كونها أمراً محرّماً شرعيّاً، فانها إضرار بالصحة، وإسراف في المال، وتكريس لعوامل القلق والاضطراب في القلب والروح، وهي ليست إلاّ مسكّناً موقّتاً - إن صح قول ذلك - يعود بالفاجعة على الإنسان.

ولعل المسلمين المتواجدين في الدول الغربية مدعوون أكثر من غيرهم إلى تكوين الحضارة الإسلامية الأمثل في محالّ إقامتهم، وذلك بخلق وصياغة أجواء المحبة والعلاقات الحسنة والبنّاءة مع الغربيين. فالإسلام يأمرنا قبل غيرنا بالطموح والتطور باتجاه التأثير في الآخرين، فنحن مأمورون بأن نخلق جنة الأرض ونبشر بجنة السماء.. وذلك ضمن المحافظة على مصداقيات ومضامين الدعوة الالهية، فلا بد من إصلاح الدنيا للوصول إلى الآخرة.

الإسلام رسالة الحياة

من ميزات رسالة الإسلام الإلهية، أنّها رسالة الحياة؛ أي أنّها تحيي الإنسان في الدنيا، وتؤهّله لحياة الآخرة، كما يؤكّد على ذلك الله عز وجل في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الانفال/٢٤)

وفي تعاليم القرآن الكريم، وتوجيهات النبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأهل بيته الأطهار عليهم السلام حشد هائل من التعاليم الحياتية التي تقوم عليها أسس حياة الإنسان كفرد، وكمجتمع، وكأمّة، وحضارة.

النظرة الاحادية إلى القرآن

وممّا يؤسف له انّ النظرة الاحاديّة إلى القرآن، وإلى الرسالة الإسلامية عموماً جعلتنا نحدّد القرآن والإسلام ضمن أطر ضيّقة، ولا نلتفت إلى تلك الآفاق الواسعة التي ينظر إليها الإسلام، ويوضح سبلها القرآن الكريم. فنحن نتصوّر -خطأً- انّ الآيات القرآنيّة هي إمّا من المواعظ التقليدية الجامدة التي نعمل ببعضها ونترك أكثرها، وإما أنّها تمثّل أحكاماً شرعيّة، ولانتنبه إلى ذلك الأفق الواسع؛ لأنّ نظرتنا ضيّقة، وافكارنا محدودة، ولأنّنا لا نكلّف أنفسنا عناء التفسير الحقيقي للقرآن.

ولذلك فإنّ القرآن الذي نقرؤه الآن هو غير ذلك القرآن الذي كان يقرؤه الجيل الأول من المسلمين، فذاك الجيل كان يقرأ القرآن وتدفعه هذه القراءة الواعية إلى ان يفتح العالم، أما نحن فإننا نقرأ القرآن قراءة سطحية غير واعية فتكون النتيجة أن يغزونا العالم، ويدخل في أعماقنا، ويستغلّنا دون أن نكون قادرين على أن نفعل شيئاً.

ترى ما هو سبب هذه الظاهرة؟

انّ القرآن هو نفسه القرآن، وذلك الجيل لم يكن يختلف عنّا من ناحية كونهم بشراً. فلو كان اولئك الرجال قد هبطوا من السماء، ولو كان القرآن مختلفاً من ناحية مضامينه عمّا هو عليه الآن، لزال التعجّب، ولاستطعنا أن نجيب على ذلك التساؤل. ولكنّ القرآن قد بقي على ما كان عليه، وطبيعة الإنسان وسنن الله فيه لم تتغيّر، فلماذا -إذن- كان القرآن ملهماً لذلك الجيل العروج الروحي والتقدم الحضاري، في حين أنّنا لا نستطيع أن نستلهم من القرآن ذلك العروج والتقدم!

إنّ الفرق يكمن في نظرتنا إلى القرآن الكريم، والانطباع الذي نحمله عن آياته الكريمة التي تحتوي على التعاليم الاساسية التي تبعث روح الحضارة في الإنسان المسلم، وتقدس العمل إما بصورة عامّة -وهي قليلة- كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ (التوبة/١٠٥)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾ (لقمان/٨). علماً انّ مثل هذه العبارة قد تكرّرت في القرآن حوالي مائة وعشرين مرّة.

أمّا القسم الأكبر من توجيهات القرآن الكريم فيتركّز على أعمال معيّنة، مثل إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأداء الحج، والجهاد، والاحسان... وما

إلى ذلك من أعمال خاصة تجعل العمل شريفاً، عظيماً، ومقدساً في الإسلام.

النظرة الحقيقية إلى القرآن

والإنسان المسلم الذي ينظر إلى القرآن نظرة حقيقية دون حجاب، ولا يجعل بينه وبين هذا الكتاب العظيم حجاباً من نفسه ونظراته، ولا يريد أن يفرض على القرآن أفكاره وآراءه ونظرياته، فإنّه يتلّقى تلك التوجيهات، وتكتمل في نفسه رؤية جديدة إلى العمل فيقدّسه ويكرّمه، ولا يرى في نفسه غضاضة وحرجاً منه. فتراه يبادر إلى أداء العمل الصالح سواء كان صغيراً أم كبيراً.

أغلال الإنسان

إنّ الإنسان بنظرته النقيّة، وبالطاقات التي أودعها الله تعالى فيه مؤهّل لانجاز الاعمال العظيمة، ولكنّ الأغلال التي قيّد بها نفسه هي التي تجعل العمل الصالح ثقيلاً عليه. ولو ترك هذا الإنسان نفسه على سجيّتها، ولم يلوّث فطرته بالأوهام والظنون والتمنيات والنفاق، لكان أنشط عملاً، وأشدّ رغبة في العطاء والتحرّك.

فمن الممكن أن ترى إنساناً يجلس في حلقات الذكر من الصباح حتى المساء، ويردّد كلمات لا يفهمها، ويجمّد كلّ طاقاته، وطاقات المجتمع.. في الحقيقة إن هذا الإنسان ذو فطرة ممسوخة، والقيود هي التي منعته من التحرّك كالخوف من الطبيعة، والتهيّب من المستقبل والمجهول، فترى الأماني الباطلة معشعشة في ذهنه، وترى تفكيره منصبّاً على أن يصل إلى أهدافه عبر أقرب الطرق... وهذه كلّها قيود تحول دون حركة الإنسان.

ولو أنّ هذا الإنسان تحرّر من هذه القيود لغمر النشاط والتحرّك كيانه، ولرأيت أنّ من الصعب عليه أن يجلس في مكان واحد، ولرأيته يصاب بالملل والضجر عندما يكلّف بالبقاء في مكان واحد. ولذلك فإنّ السجن إنما جعل عقوبة وتأديباً للانسان، لأن طبيعته ترفض السكون والجمود. ولكنّ الذين يسجنون أنفسهم في زنزانات القيود والأغلال النفسية، فانّما يرحّبون هذا السجن الاختياري بسبب الأغلال المحيطة بأنفسهم، وبسبب فطرتهم الممسوخة.

وبناء على ذلك فإذا ما أحسسنا في أنفسنا بحب الراحة، والميل إلى الكسل، فلابد أن نتهم أنفسنا هذه، ونعلم أن فطرتنا قد تلوّثت.

معرفة قيمة العمل

ولو أنّ المسلمين عرفوا قيمة العمل كما كان أسلافهم يعرفونها يوم إنبعث الجيل الأول منهم، لاستطاعوا أن يحرّروا العالم، وينشروا عليه ألوية العدل والرفاه، ولحققوا أهدافهم منذ زمن بعيد.

وللأسف فمنذ القرن الرابع الهجري انتشرت بين المسلمين الروح الصوفية بمفهومها السلبيّ، هذه الروح التي حوّلت النشاط والعمل والاجتهاد إلى أوهام وخرافات وتخيلات وهروب من الحياة، ومنذ ذلك اليوم بدأت المسيرة العكسية في حضارة المسلمين؛ أي إن هذه الحضارة بدأت بالهبوط والانهيار، حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

وعلى سبيل المثال فإن الفلاح المسلم الذي كان يقوم مبكّراً بعد أن يؤدّي صلاة الفجر ليتجه إلى مزرعته، ويشق الأرض، ويشرف عليها حتّى حلول الظلام. غير أن حبه لأرضه وعمله، قد إنعدم من حياته الآن

تقريباً، لأن ديدن الفلاحين اليوم في البلدان المسلمة أن يتركوا أراضيهم، ويتوجّهوا نحو المدن بحثاً عن الرفاهية الأكثر والعمل الأقل.

إنّ هذه الروح المتكاسلة المتقاعسة هي التي جعلتنا نعيش هذه الأوضاع المتردّية، وبصفتنا حملة رسالة، ودعاة إلى الإسلام لابد أن ننمّي في أنفسنا روح العمل وهمّته وحبّه.

طالب العلم والعمل

وللأسف هناك من طلاّب العلم من يتصور أنّ العمل غير واجب عليه، وأن وظيفته تقتصر على طلب العلم فحسب، في حين إنّ الإنسان الخامل الذي يتصوّر أن العلم يقتصر على قراءة الكتب لا يمكن أن يصبح عالماً، لان العلم ليس بكثرة الدراسة والقراءة. فالإنسان الذي يتحرك في الحياة، ويعمل فيها بجدّ ونشاط بامكانه أن يحصل على العلم، ويكتسب الخبرات والتجارب بصورة أفضل من طالب العلم الذي يستنكف من العمل.

ومن خصائص وميزات التقدم التكنلوجي في العالم اليوم ربط العلم بالعمل، ففي كلّيات الطب -مثلاً- توجد مستشفيات خاصة للتجربة والتطبيق، وفي معاهد إعداد المعلّمين لابد أن يدخل الطالب الذي يريد أن يصبح معلّماً بعد تخرّجه دورة تطبيقية، وهكذا الحال بالنسبة إلى الكليات والمعاهد الاخرى.

ضرورة تطوير الفقه

ونحن أيضاً علينا أن نطوّر الفقه، وفهم الإسلام. فالمتفقّه في الدين لابد أن يتفقّه الساحة أيضاً، فإن أراد -مثلاً- أن يدرس مسائل الذبح فعليه أن يذهب إلى المسلخ ليتعرّف عن كثب على هذه العملية. فهناك الكثير من

المسلمين قد يعرفون المسائل الشرعية المتعلقة بالحج - مثلاً- ولكنّهم قد يتورطون في ذبح ذبيحة، فلا يعرفون ماذا يصنعون.

وهكذا الحال بالنسبة إلى دراسة مسائل القضاء، فالطالب عندما يريد أن يدرس مسائل الحقوق والعقود والايقاعات، لابدّ له من أن يذهب إلى المحاكم، ويجلس مع الحاضرين فيها ليتعرّف على طبيعة الخلافات التي تحدث في المجتمع، والطريقة المثلى لحلّها. أمّا أن نجلس، ونحيط أنفسنا بمجموعة من الكتب، فإنّ هذا السلوك غير صحيح، فلابّد لنا من أن نجعل فقهنا عملياً، وننمّي في أنفسنا الطاقات العملية النشيطة.

وقد ذكرت في أكثر من موضع كيف أن علماءنا الماضين كانوا يصرّون على ان يؤدّوا أعمالهم بأيديهم من جمع فراش النوم إلى تنظيف البيت وما إلى ذلك من الأعمال، مستلهمين هذا السلوك من النبي الأعظم صلى الله عليه وآله الاطهار عليهم السلام.

العمل مقدّس

انّ العمل مقدّس مهما كان مادام يؤدّي الإنسان من خلاله الخدمة إلى مجتمعه، حتى وإن كان هذا العمل متمثلاً في القيام بأعمال البيت. ففي هذا المجال يقول الإمام عليّ عليه السلام: " صدّيق امتي من يعين أهله في بيته". ومن الخطأ بمكان أن يتصوّر الواحد منا أنه إذا أصبح عالماً، فإنّ عليه أن يجلس في مكان واحد، ويتحرّج من القيام بالأعمال العمليّة.

إنّ الدراسة مطلوبة، ولكن ضمن حدودها المعقولة. والأئمة عليهم السلام على الرغم من أنّهم كانوا يقودون المجتمع، ويجيبون على المسائل المختلفة للناس، ويؤدّون أدوارهم السياسية.. نرى أنهم لم يكونوا

يستنكفون من العمل، فكانوا يستصلحون الأرض، ويقومون بالاعمال التجارية.

إنّ الذي أريد ان أقوله هنا: إنّ الواحد منّا لابد أن يكون انموذجاً يتجسد فيه جميع جوانب الإسلام، فلا يجوز لنا ان نقول اننا نكتفي بهذا الجزء من الإسلام، ونترك الأجزاء الاخرى، فمثل هذا الموقف لا يجوز أن يصدر من الإنسان المسلم.

وهكذا فمن المتعيّن علينا أن نكثّف الانتاج ونزيده، فلا شك ان مثل هذا العمل سيسجّل في قائمة أعمالنا الصالحة. فخدمة المجتمع ولو بسقاية الماء والأعمال الاخرى التي نتصوّر أنها لا تنفعنا في الآخرة، من شأنها أن تتراكم وتتكثّف لترجح كفّة حسناتنا في يوم القيامة، كما يشير إلى ذلك ربنا تعالى في قوله: **﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾** (الزلزلة/٧-٨).

وكما يقول عز وجل في موضع آخر: **﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾** (الحشر/١٨)

الإسلام منهج الحياة

عندما يتأمل الإنسان المؤمن في آيات الذكر الحكيم، يلاحظ أنه قائم على بصيرة مزج الحقائق مع بعضها؛ فليست هناك مسافات شاسعة بين العقائد والاخلاق، وبين الاخلاق والشرائع والوصايا، ولا بين الاصول والفروع، والماضي والحاضر، والحاضر والمستقبل، وبالتالي بين الدنيا والآخرة.

وهذه النظرة الشمولية التي زوّدنا بها القرآن الكريم عبر آياته الكريمة تجعلنا نهيمن على الواقع؛ فان نظرتنا إلى جانب منه لا تعني غفلتنا عن الجوانب الاخرى، واذا عملنا في بعد منه فاننا سوف لا نهمل سائر الابعاد، وإذا تحرّكنا في المجال السياسي، فلن نغفل المبادئ الاخلاقية، وإذا ما ربطنا بين السياسة وهذه المبادئ فإننا سوف لا نترك شرائع الدين وأحكامه وحدوده. فالحدود والاحكام والوصايا والأخلاق السامية والمبادئ العليا، كلّها يضعها القرآن الكريم في إطار واحد.

قصة موسى عليه السلام تجسيد للسنن الإلهية

وفي القرآن الكريم وبالذات سورة إبراهيم عليه السلام يحدثنا الله عز وجل عن مشهد من صورة كبيرة؛ هي صورة الصراع بين بني اسرائيل

بقيادة نبيّهم موسى عليه السلام، وبين جنود الطاغوت بقيادة فرعون، وقد تمثّلت في هذا الصراع كلّ السنن الإلهية؛ أي انّ هذه السنن لو طبّقت اليوم لتمخّضت عن ذات الحقيقة والواقع.

لقد كان فرعون بشراً كسائر البشر؛ إلا أنّه ظهر في بيئة يعيش فيها مجتمع من النوع الغافل الذي لا يمتلك ذهنيّة ولا فكراً ولا قيادة، كما يشير إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ﴾ (الزخرف/٥٤)؛ أي إنّ فرعون بدأ يذكر لهم أفكاراً خاطئة وأكاذيب فانخدعوا بها، والتفّوا حوله. وهذه السلوكيّة التي صدرت من فرعون من الممكن أن تتكرّر كلّ يوم، ولذلك فإنّ القرآن الكريم يضرب لنا الامثال من قصص الماضين، لارتباطها المباشر بحياتنا.

قضايا رئيسية

ولذلك فانّ القرآن الكريم لم يذكر لنا جزئيات وتفاصيل حياة الفراعنة –على سبيل المثال–، ولكنّه يذكر لنا القضايا الرئيسية التي تمثل سنناً من الممكن أن تتكرّر. ومن ضمن هذه القضايا ان فرعون كان منبهراً بحب الرئاسة، مشغوفاً بها، كما يشعر بذلك قوله تعالى على لسان هذا الملك الطاغية: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾(النازعات/٢٤)

وفي الحقيقة فانّ مثل هذه الظاهرة موجودة في قلب كلّ إنسان، فكلّ واحد منّا يمتلك أو يُبطن فرعوناً صغيراً في نفسه، كما جاء في الحديث الشريف: "كلّ بني آدم يضمرون ما أظهره فرعون"، وهذا يعني أنّ فرعون عبّر عن حبّه للرئاسة صراحة عندما رأى الظروف مهيّأة لذلك، أمّا بالنسبة إلى سائر الناس فإنّ مثل هذه الظروف لم تتوفّر لهم.

ولذلك فانّ على الإنسان ان يسأل خالقه أن لا يمتحنه بما لا يطيقه، فلو أصبح الحمل أثقل ممّا يتحمّله فإنّه سينهار. ولذلك كان علماؤنا رضوان الله عليهم يجأرون إلى بارئهم أن لا يبتليهم بالرئاسة عملاً بالوصية المعروفة للامام الصادق عليه السلام: "واهرب من الفتيا هربك من الاسد". (١) وبالطبع فإنّ العالم لا يمكنه أن يتهرّب من المسؤولية إذا تعيّن عليه أن يتحمّلها، لانّها مسؤوليّة إلهية.

وللأسف فانّنا نهتمّ ببناء البيوت التي هي فوق الأرض، في حين أنّ بيوتنا الحقيقية تحت التراب. فلنعمر هذه البيوت ونهتمّ بها، لأننا سوف نخرج منها إلى النشور، وهول المطلع.

وهذه هي مفردة من مفردات النظرة الشمولية للاسلام، ومن هذا المنطلق يجدر بالإنسان المؤمن أن يأخذ بنظر الاعتبار الآخرة وهو يعمل لدنياه.

الإسلام يدعونا إلى النظرة الشمولية

وعلى هذا فانّ النظرة الإسلامية هي نظرة شمولية تدعونا إلى ملاحظة القضايا والظواهر دون تجزئة. فالإنسان المؤمن عندما ينظر إلى قضيّة سياسة ينظر إليها من منظار التقوى، وإذا نظر إلى قضيّة دينيّة فانّه يأخذ بنظر الاعتبار الوضع السياسيّ.. فالإنسان المؤمن يجب أن يكون متمتّعاً ببعد النظر الشمولي في جميع الجوانب لا في جانب واحد على حساب الجوانب الاخرى.

وهنا أضرب مثلاً من قصّة فرعون التي يأتي بها القرآن الكريم، ويدخلها في وعينا وكأنّها قضيّة نعايشها اليوم، إذ يحثّنا على استلهام العبر منها؛

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص٢٢٦.

هذه العبر التي تضيء الطريق، وتعلّمنا كيف نتحرّك. وعلى الرغم من انّ هذه القصة ذات بعد سياسيّ من خلال وجود الصراع فيها، وعمليّة تغيير النظام، الا انّ القرآن الكريم لا ينظر اليها من زاوية سياسيّة فحسب، وإنّما يتعمّق في طرحها ليحوّلها إلى قضيّة تربوية.

وفي هذا المجال يقول القرآن الكريم على لسان النبي موسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ (المائدة/٢٠)؛ أي إن الإنسان يجب أن يذكر الله تعالى، لا من خلال ترديد الأذكار فحسب؛ بل عليه ان يتذكّر، ويعي، ويستوعب نعم الله عز وجل عليه.

ثم يضيف السياق القرآني الكريم محدّداً نوع النعمة التي أنعم الله بها على بني إسرائيل: ﴿إِذْ أَنجَاكُم مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلآءٌ مِن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ (ابراهيم/٦)؛ أي إنّ هذا العذاب الذي كان يعاني منه بنو إسرائيل كان نتيجة لسوء علاقتهم بالله جل وعلا، فسلّط عليهم فرعون وملأه.

ثم يقول تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾ (ابراهيم/٧). فالرضا والشكر يقفان على رأس الفضائل، فيجب أن نشكر الله تعالى على نعمه، وعلى الانتصارات التي نحققها لكي يبارك لنا الخالق فيها. أمّا إذا كفرنا بها، فانّها سوف تتحول إلى هزائم.

بعد ذلك يشير عز وجل في قوله: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ (ابراهيم/٨). الأمم التي عاشت قبل عصر موسى عليه السلام من مثل قوم نوح وعاد وثمود الذين دخلوا في صراع حادّ مع انبيائهم، بالرغم من إنّ أنبياء الله كانوا يأتون اليهم بالآيات والدلالات الواضحة، إلاّ أنّهم كانوا يشكّون في وجود الخالق

تعالى شأنه؛ أي الإنسان من الممكن أن ينتهي به الامر إلى الكفر والضلالة. فهو قد لا يعلن بصراحة عن كفره، إلاّ أنّ طلبه من الأنبياء أنّ يقدموا الدليل على كونهم مرسلين من قبل الله هو بحدّ ذاته كفر، خصوصاً وأنّ الأنبياء عليهم السلام قدّموا الأدلة الكافية في هذا المجال. وهنا أوحى الله سبحانه وتعالى إلى الانبياء انّ النصيحة لا تنفع مع اقوامهم، فأمرهم حينئذ بالتوكل عليه.

التوكل زاد الإنسان الرسالي

وهكذا يقدّم لنا القرآن الكريم صفة أخرى من الصفات التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان المؤمن خلال الصراع، وهي التوكل على الله عــز وجل، وهذه الصفة تعني أن يشحذ الإنسان ارادته.

صحيح إنّنا ضعفاء، وانّ الحمل ثقيل، والظروف تعاكسنا، ولكن الله تعالى وعدنا بالنصر قائلاً: **﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾** (محمد/٧). فلنقتحم -إذن-؛ فان روحيّة الاقتحام والجدّ في العمل تصنع المعاجز، وهذا هو معنى التوكّل المشار إليه في الآية الكريمة: **﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾** (آل عمران/١٢٢).

وبناء على ذلك، فما دمنا مؤمنين بالله، وبقدرته وهيمنته، ووعده بالنصر، فلماذا لا نتحرك؟ علماً إنّ التوكل عليه سبحانه لا يقتصر على عمل معين بذاته فحسب، بل يتجلّى في كلّ عمل. فلو كنّا نمتلك التوكّل الحقيقيّ فاننا سنقوم بزيادة اعمالنا الصالحة، وسوف لا نبقى مترددين نخشى الفشل وكلام الناس ضدّنا أو نفاد أموالنا، بل سننبذ الخوف جانباً، وسنتمتع بروح الاقدام، فاننا حتى لو فشلنا في المشاريع التي نقوم بها فانّ هذا أفضل من أن نجلس ساكتين.

إننا مسؤولون في يوم القيامة عن الفرائض التي تركناها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتقديم المساعدات إلى الفقراء والمحتاجين، واخواننا المسلمين الذين يعيشون المحنة في هذه المنطقة أو تلك من العالم الإسلاميّ وغيره، فعلينا أن نفكّر في تقديم الخدمات إليهم، وان لا نتذرّع بأننا فقراء معدمون لا نمتلك شيئاً نقدّمه.

فعلينا الاهتمام بالآخرين أينما كانوا، ونشارك في المشاريع الخيريّة، لانها تمثّل صدقة جارية. وعندما نسهم في هذه الصدقة الجارية، فإن الله عز وجل بدوره سوف يعيننا في حياتنا، ويرزقنا من حيث لا نحتسب.

الإسلام كلّ لا يتجزأ

إنّ الإسلام كلّ لا يتجزأ؛ فهو عقائد، وأخلاق، وشرائع، ووصايا، وآداب، وكلّ هذه الجوانب يجب أن يلتزم بها الإنسان المؤمن. فالإنسان المجاهد لا يمكن – على سبيل المثال– أن يتعامل مع والده باسلوب غير مهذّب، لأنّ هذا الإنسان مهذّب ومؤدّب بالإسلام. كما لا يجوز للانسان المؤمن أن يخرج عن حدود الله مهما كانت بسيطة، فالشيء الكبير لا يمنع من الالتزام بالشيء الصغير، فحتى لو كان المؤمن يقاتل في ساحة الصراع فانّ عليه ان يعملَ بالمستحبّات، كأن يقرأ القرآن، ولا يترك صلاة الليل.. فمثل هذه الاعمال من شأنها أن تعود علينا بالنفع، وعلينا ان لا نستصغرها بحجة نظرتنا الشمولية للاسلام.

الإسلام نظام الحياة

يتساءل البعض عن الطريق الأفضل والأقرب إلى تنمية الايمان؟ وعن التزود في هذه الدنيا بالتقوى لضمان العاقبة؟ ذلك ان التزود بالتقوى هو الوظيفة الأولى والمهمة الرئيسية التي يتوجب على الإنسان إنجازها في الدنيا؛ فالدنيا مزرعة الآخرة، ومن استطاع النجاح في انجاز مهمته فهو في خير ما فوقه خير، ومن تثاقل عنها فهو في خسران ليس دونه خسران.

والله سبحانه وتعالى أقسم بالعصر بأن الإنسان في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر، فغير هؤلاء الذين حدّدهم القرآن الكريم أحاط بهم الخسران المبين إحاطة السوار بالمعصم.. شاؤوا أم أبوا؛ فالحقيقة الالهية وسر الوجود والخلقة يفرض نفسه فرضا على بني البشر.

إن التساؤل المطروح تكمن فيه الخطورة مجسمةً تمام التجسم، إذ في الاجابة عليه يتحدد مصير الإنسان.

ولتسليط مزيد من الاضواء على ذلك، نؤكد بأن قرار ومصير الإنسان لا ينبغي أن يشوبه التهاون والضّعة، ولا أن يقاس بمقاييس التمني والتظني، بل لابد لذلك من رغبة حقيقية صادقة في تبيين الأمور، ومعرفة الطرق الكفيلة بنجاح القرار المتبنى على اسس معرفية مستقاة من التعاليم الدينية الأصيلة التي أوضحتها لنا الآيات القرآنية الكريمة وسنة أهل البيت المطهرة.

فالطريق السليم والمستقيم لا يرسمه الإنسان، والوسائل الصالحة لا يوجدها هو، بل هي مرسومة من قبل الشريعة البيضاء والدين الحنيف. والوسائل بدورها بمثابة النعمة الربانية على الناس، وهؤلاء ما عليهم إلا التبيّن في الطريق والانتخاب في الوسائـــل. والله قد قال في كتابه المجيد: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلاَ أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ (النساء/١٢٣).

إذن؛ فالدين ليس تلاوة القرآن بقدر ماهو العمل به، وليس هو ترديد الأذكار والاوراد الخالية عن الفهم العقلي والتضامن القلبي والسلوك الحسي. حيث قال صلى الله عليه وآله: "رب تال القرآن والقرآن يلعنه". (١) وربما يكون الإنسان كما الحمار الذي يحمل أسفاراً، لا يعي ما فيها، بل ولا يدرك سبب حمله إياها...

وهذه هي العبرة العظيمة التي ينبغي أن نتبصرها من خلال توجيه الرسول صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام، حينما رآه قد أجهد نفسه بالعبادة فقال له: "يا علي إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق..". (٢)

وهكذا المثل في بقية أئمة أهل البيت عليهم السلام، الذين كان الواحد منهم يتبتل إلى ربه تبتيلاً في الليل طلباً لمرضاته، وفي النهار كان يصل الرحم ويهتم بالفقراء والمساكين ويعلم الناس ويقف بوجه الظالم ويطالبه بكل ما أوتي من قوة بتحقيق العدالة.

ولقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام يصلي في الليلة الواحدة ألف ركعة خالصة لوجه الله تعالى، فإذا أصبح الصباح مشى إلى فراشه حبواً،

---

(١) بحار الأنوار، ج٨٩، ص١٨٤.

(٢) وسائل الشيعة، ج١، ص٨٣.

لأن ركبتيه ما كانتا تحملانه إلى الفراش من كثرة ما تعبد وأجهد نفسه بالعبادة. ولكن لم تكن هذه الصلوات حركته الوحيدة في حياته، وإنما كان من سيرته الطاهرة المباركة أنه أخذ على نفسه الزكية أن يعتق كل عام مائة من العبيد، بعد ان يشتريهم ويعلمهم ويزكيهم بانتخاب وانتقاء بالغين. فإذا بالواحد منهم يصبح بمفرده أمة صالحة، قادر على أن يكوّن البنية التحتية للمجتمع. وكان عليه السلام يعارض ويقاوم الطغاة من خلال نشر رسالة وأهداف الإمام الحسين عليه السلام، وغيرها من الأعمال الفذة التي تعجز الأقلام والألسن عن حصرها.

ومن هنا؛ فإن القضية الأولى في حديثنا تتجسد في القول بأن الدين نظام شامل للحياة بكل تفاصيلها.. ومن الخطأ القاتل بأن يؤخذ الدين أو يفهم من زاوية واحدة. أو أن يعمد الناس إلى تقطيع أوصال الدين، كل يكتفي بقطعة.

فالدين كل لا يتجزأ أبداً، والدليل الأكبر على ذلك هو ما تعيشه المجتمعات البشرية من مآسٍ وويلات. فالشيطان الرجيم إختط لها طريقة بلهاء تمثلت في عزل الدين عن حياتها، إلا ما يساعد على تحقيق مصالحها أو ينعدم تأثيرها فيها. ففصل الدين عن السياسة والتجارة والتربية والعلاقات، ولم يبق منه سوى لقلقة اللسان والرسوم المشوهة. وهذا ما بينه الأئمة المعصومون فيما يتصل برواياتهم حول أشراط الساعة وأحوال آخر الزمان.

فالدين هو الدين الذي ينفع الحياة، هو الدين الذي لا يفرق بين بعض الكتاب وبعضه، ولا يتخذ القرآن عضين. فالدين الذي لا بد وأن يطبقه الناس والحكومات في السياسة والاجتماع والتاريخ وخطط الحاضر

والمستقبل وكل بعد من أبعاد الحياة، انما يجب أن يحكم حتى يسمو بالإنسان إلى الدرجات الرفيعة التي وعده الله تعالى.

ولقد استطاع المسلمون في صدر الإسلام أن يفتحوا العالم في فترة قياسية جداً على رغم صعوبة المواصلات ووعورة الطرق وانقطاع الاخبار شبه التام، فوصلوا إلى الصين شرقاً والأندلس غرباً، لأنهم تعاملوا مع التعاليم الدينية تعاملا واسعا وشاملا. والآن وقد وضع الناس دينهم وراء أظهرهم، فقد ابتلوا بما لم يكن في حساباقم، وهو الأمر الذي حذرهم منه القرآن الكريم نفسه، حيث قال: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ (طه/١٢٤)؛ أي إنه سيفتقر إلى المنهج القويم فيكون كمن يركض وراء سراب، وبذلك تكون معيشة في تعب وضنك دائمين.

مسؤولية كبرى

من المسؤوليات الكبرى المفروضة على العلماء، هي إعادة لُحمة الدين إلى أصله وسابق وحدته الواحدة. ولو لم يستطيع العلماء أن يحولوا أنفسهم رجالاً صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فان الجهود ستذهب سدى؛ لان شجرة العلم عاجزة تمام العجز عن إعطاء الثمرة، ما لم يقف على أمر مداراها أناس يمتازون بخصائص فذّة؛ خصائص حددها القانون الرباني، وأولها هي الصدق في الجذور والفروع والأغصان...

من هنا يتأكد على العلماء دور تحويل المجتمع بسائر طبقاته وأبعاده إلى كيان ديني عريق، بدءاً بعلاقة الإنسان بنفسه، ومروراً بعلاقة الفرد بأقرانه كمجتمع، وانتهاءً بوضع قانون فاعل يحدد نوع العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

وفي القرآن إشارات واضحة ومباشرة تؤكد أن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله صنع النموذج الأصدق للحاكم، إنطلاقاً من كونه قد صدق فيما عاهد الله عليه. لذلك فإننا نرى الله سبحانه وتعالى قد جعله القدوة الحسنة للمؤمنين، بل وللناس جميعاً.

فهو لم يكن عالةً على المجتمع، يجمع الأموال ويترف بها دون الناس، ولم يكن يوجه النصح للناس دون أن يلتزم بها قبلهم.. فهو كان يعرف حق المعرفة أن أدنى محاولة لتهرّبه عن عهده مع الله سبحانه، يؤدي إلى أن يكون لسيرته مردوداً عكسياً تماماً، إذ لا يسع الناس - بأي حال من الأحوال - أن يقتدوا بمن يقول ما لا يفعل.

ان الفترة الزمنية التي تعيشها مجتمعاتنا المسلمة وما فيها من تكالب أجنبي عليها تدعو العلماء إلى أن يجسدوا - ما وسعهم - تعاليم الدين في أنفسهم، ثم ينتقلوا إلى الناس ويحملوهم على الالتزام الديني، لتكون البلاد الإسلامية عبارة عن مدرسة للخير والعطاء ومقارعة وساوس الشيطان.

إن واقع الأمر والتجربة يؤكدان بما لا يدع مجالا للشك، بأن تطبيق الدين لا يتوقف على إذاعة وبث برامج تلفزيونية أو مقالات صحافية، بقدر ما يتوقف على ظهور نماذج حقيقية من العلماء العاملين بالدين، همهم صناعة مجتمع حي مفعم بروح القرآن.

إن صدق العهد يعني الشدة والعزم والطموح السامي الصادر عن الرجال، وما تحمله كلمة "رجال" من معاني المروءة والالتزام والرغبة في التفوق باتجاه الله جل وعلا. فالرجل ومعاني الرجولة تأبى على الإنسان أن يولد صغيراً ويموت صغيراً.. تمنعه عن أن يولد خادماً عند سلطان ويموت عبداً ذليلا عند سلطان آخر، أو بين يدي هوى نفسه الأمارة بالسوء..

بل هي تأمره بأن يسمو إلى الأفق الأعلى لتكون نفسه مطمئنة فتدخل جنة ربها بعد العمل الصالح.

الرجل النموذج

قرأ أحدهم كتاب "تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، المعروف بـــ" بمجموعة ورّام" وهو من تأليف العالم الرباني (ورام بن ابي فراس) المشهور بالورع والتقوى وخدمة الناس. فأراد القارئ أن يختبر المؤلف ويطلع على حياته وسيرته عن قرب ومدى تطابق سيرة الكاتب مع ما جاء من تعاليم وأفكار في الكتاب. فالتقاه جالساً في قصر كبير وحوله الخدم، فقال لـــه (القارئ) مستاءً: إنك نصحت بالتزام الزهد والتقوى في كتابك، وأراك تملك ما لا يملكه إلاّ الأثرياء؟! فقال له العالم: إن الزهد أن لا يملك شيء، لا ان لا تملك شيئاً. فقال له (القارئ): وما دليل قولك هذا؟

قال: تعال معي لنذهب خارج المدينة، بعيداً عن كل هذه الأموال والأملاك.. نعبد ربنا عز وجل. فوافق العالم على هذا الاقتراح، فأخذ من ساعته بيد ضيفه إلى العراء وهمّا بالخروج من المدينة، ولكن (القارئ) استوقفه قائلا: لقد نسيت مسبحتي في قصرك، وأنا لا أقدر على العبادة دونها (!) فقال له العالم ورّام: إنك تعجز عن ترك مسبحة لا تساوي من المال شيئا، وقد خرجت أنا من كل ما أملك دون ان يخطر ذلك على بالي هذا هو حقيقة الزهد، كما قال أمير المؤمنين الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام: " ليس الزهد أن لا تملك الشيء وإنما الزهد أن لا يملكك الشيء " فتركه وانصرف...

وثمة قصة عن ذلك الشاب المنشغل بدراسة العلوم الدينية الـــذي دخلت

عليه فتاة بارعة الجمال في غرفته ليلاً قائلة: لقد خرجت من بيتي لقضاء عمل معين، فحاصرني الظلام وأخاف الرجوع، فلجأت مضطرّة إلى مدرستكم لأحتمي بظلها على أن أعود إلى بيتي مع حلول الصباح. فرحّب بها الشاب وأعدّ لها مكاناً تنام فيه. فانزوت الفتاة، ولكن ما أثار فضولها بشدّة رائحة لحم مشوي ملأت جو الغرفة حتى الصباح، وفي اليوم الثاني غادرت الفتاة الغرفة.. وبعد ساعات امتلأت المدرسة بالحرس الملكي الذين جاءوا يسألون عن الشاب للمثول بين يدي الملك. وحينما امتثل سأله الملك: ما قصتك في الليلة البارحة؟ فأجاب الشاب: لقد استجارت بي فتاة فأجرتها. فسأله الملـــك: ما قصة رائحة الشواء في غرفتك حتى الصباح؟ فاستعفى الشاب عن الاجابة، فأصر الملك على الجواب، فقال الشاب: لقد هجم الشيطان عليّ بحضور الفتاة في غرفتي، ورأيت أن لا خلاص من الشيطان إلا بأن أوقد الشمعة وأضع يدي في نارها لأتذكر عذاب جهنم، وهذه يدي قد احترقت. فتعجب الملك لهذه القصة، وقال: إعلم إن فتاة أمسك هي بنتي، وأنا لا أرى كفواً غيرك لتتزوجها. فتزوجها الشاب وأصبح هذا الشاب يدعى بـــ "مير داماد" أي صهر الملك، وهو من كبار العلماء العارفين.

إن نشر رسالات الله بحاجة إلى زهد كزهد العالم ورام، وإلى صمود كصمود هذا الشاب العارف العالم، تماما كما علّمنا أمير المؤمنين عليه السلام الذي قال في هذا الاطار: "وإنما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر". (١)

---

(١) نهج البلاغة، كتاب ٤٥.

فالمهم في رجال الله هو سعيهم الحثيث نحو الله، والتجرد عن الدنيا وزخارفها لتتحقق بذلك الضمانة الأولى، دون انحراف المجتمع الذي قد يأخذه الباطل فيصور الدين في غير صورته؛ فيأخذ ما يشتهي، ويدع ما لا يرتضي زوراً وبطلاناً.

وإيمان هؤلاء الرجال الصادقين بمثابة الروح المحركة. فيا ترى كيف نوجد هذه الروح في داخلنا؟

وفي معرض الاجابة لابد من القول: بان هذه الروح المرجوة لا تتواجد بالطرق التي نخترعها لأنفسنا، وانما بالطرق التي رسمها لنا القرآن الكريم، لاسيما في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً * وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَاناً وَتَسْلِيماً * مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً * لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ (الاحزاب ٢١-٢٤)، ومن صفات هذه الطرق:

١- ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾ فالانطلاقة الايمانية يجب أن تكون من حيث الله، والاعتقاد بأن ثَم يوم توفّى فيه كل نفس ما عملت.

٢- ﴿وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ وعي التوحيد وتفعيله باستمرار.

٣- الصمود في المواجهة، ولا سيما في حال الهزيمة التي توضح بجلاء حقيقة الإنسان وحقيقة الايمان الذي يدعيه. وهذا يعني إن الايمان الأصيل هو إيمان الاستقامة عند هزيمة الآخرين، إيمان الامام علي عليه السلام

الذي أحجم جميع المسلمين عن مقارعة عدوهم يوم الخندق وبقي وحيداً يطلب الإذن من رسول الله صلى الله عليه وآله في مقاتلة رأس الأعداء، حتى قال عنه رسول الله صلى الله عليه وآله: " برز الايمان كله إلى الشرك كله"(١) وحينما انتصر أمير المؤمنين على عمرو بن ود قال الرسول الأكرم قولته المشهورة: " لضربة علي خيرٌ من عبادة الثقلين". (٢)

نعم؛ فان رجاء الله واليوم الآخر والاستمرار العملي في ذكر الله، إنما يزيد المؤمن إيمانا بالحقائق والتسليم للحكمة الالهية، ومضاعفة التمسك بالعهد مع الله والوفاء به.

ولقد جسد أمير المؤمنين عليه السلام هذا التسليم والتصديق إلى حدود يعجز الإنسان عن وصفها. ولا عجب من ذلك، إذ هو في الواقع بطل القصة القرآنية التي تحويها آيـــات سورة الأحزاب، وهو بسيرته الفذة استحق الوسام الرفيع الذي قلدته إياه آيات القرآن المجيد فهو عليه السلام كان رغم ما تصيبه من جراحات بليغة في المعارك –على قلة عدد جند المسلمين وتكالب وتظافر الأعداء عليهم– كان يرجع أسفاً منكسر الخاطر، لأنه لم ينل سعادة الشهادة، ويقول لسيده: "يا رسول الله؛ أوَ ليس قد قلت لي يوم اُحد حيث استشهد من استشهد من المسلمين وحيزت عني الشهادة فشقّ ذلك عَليَّ فقلت لي أبشر فان الشهادة من ورائك". (٣)

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٠، ص٢٧٤.

(٢) بحار الأنوار، ج٣٩، ص٢.

(٣) نهج البلاغة، خ١٥٦.

الإسلام قيم الحياة

من النعم التي منّ الله تعالى بها على البشر، نعمة الرسالة. والملاحظ إن التعبير القرآني بـــ (المنة) لم يأت إلاّ في نعمة الرسالة، فمن دونها لا يمكن أن تنفع النعم الأخرى إن لم نقل أنها قد تنعكس وتنقلب لتصبح نقماً على الإنسان.

فالمال هو نعمة، ولكن الذي لا يعرف كيف يتصرف فيه يتحول بالنسبة إليه إلى نقمة. وهكذا الحال بالنسبة إلى النعم الأخرى كالشباب، والحرية، والعلم... بل إن النعمة كلما كبرت وعظمت فانها تكون أخطر على الإنسان.

لماذا الرسالة أصل النعم

وعلى هذا فان السبب في كون الرسالة نعمة يمن الله بها على الإنسان، أنها تكمل سائر النعم الالهية، وتجعل النعم الأخرى مفيدة بالنسبة إلى الإنسان. ومن هنا فان القرآن الكريم يؤكد على هذه الناحية مبيناً أن هذه النعمة — نعمة الرسالة — هي أعظم وأكبر نعمة أنعم بها علينا، كما يشير إلى هذه الحقيقة قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ..﴾ (البقرة/١٥١).

وعلى هذا لابد أن نذكر الله تعالى، ونشكره على نعمة الرسالــة، ولا نكفر بها، وقد دعانا ربنا إلى ذلك بقوله: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ﴾** (البقرة/١٥٢). أما عن كيفية هذا الشكر والذكر، وعدم الكفر بهذه النعمـــة الالهية فان الآيات التالية تبيـــن ذلك: **﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾** (البقرة/١٥٣).

وبعد فهذه هي البرامج العملية لشكر النعمة؛ فالصلاة هي عمود الدين، وهي ذكر الله، وهي الحبل الموصل بين الإنسان وبين الله، وهي تحتوي على آية وعلامة من كل عمل خير في حياة الإنسان.. ففي الصلاة دلالة على سائر أحكام الدين؛ فمنها الطهارة، والحلال والحرام، والحقوق الشرعية، وحقوق الآخرين.. فالـــذي يصلي يطبق عادة سائر التعاليم الدينية، فيكون طاهراً، يفتش عن مكان طاهر ونظيف، ويهتم بالحلال والحرام، ولا يغتصب حقوق الناس، لأن الأكل الذي يتناوله سيصبح حراماً، وكذلك البيت الذي يشتريه بالأموال المغصوبة، بل إن الذي يأكل لقمة من المال الحرام فان صلاته لا تقبل إلى أربعين يوماً، وكذلك الحال بالنسبة إلى الأمور الأخرى كالحقوق الشرعية، وحقوق الوالدين، فالإنسان المصلي يهتم بها، ويحرص على تطبيقها.

وهكذا فان علينا أن نبلغ للصلاة وندعو إليها، لأن الصلاة تدعو الناس إلى سائر الأعمال الصالحة؛ إلى الحضور في المساجد، إلى الاهتمام بواجباتهم الشرعية، وما إلى ذلك. ومن أهم الواجبات في هذا الصدد أن نعلم أولادنا الصلاة في سن مبكرة، لأنهم إذا تعودوا على الصلاة فانهم سيطبقون سائر التعاليم.

وهنا أريد أن أقف وقفة عند الآية: ﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ وذلك بعد أن أوضح ماذا تعني نعمة الرسالة.

أبعاد ثلاثة لنعمة الرسالة

إن الآيات السابقة تبين ثلاثة أبعاد لنعمة الرسالة؛ البعد الأول يتمثل في قوله تعالى: ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا﴾ أي أنه بعد تلاوة آيات الله وتلاوة الكتاب.

البعد الثاني هو التزكية: ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾. والبعد الثالث هو بعد التعليم: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾. وهذه هي مسؤوليات الرسول؛ فكل رسول يقوم في أمته بهذه الواجبات الثلاث؛ تلاوة الآيات، وتزكية النفوس، وتعليم الناس التعاليم الضرورية. وهذه الأمور الثلاثة هي في الواقع اصول الإسلام. ففيما يتعلق بتلاوة الآيات فان الإسلام لا يجبر الناس على التقوى، وإنما يغير نفوسهم بآيات الله. فالقرآن الكريم هو أصل كل خير، ففي اليوم الذي نبتعد فيه عن القرآن الكريم علينا أن نقرأ الفاتحة على كل القيم والرسالات والجوانب المشرقة في حياتنا.

إن تلاوة القرآن تعني أن نتدبر في الآيات القرآنية، لأن القرآن يذكرنا بالله، وبالموت، وبالعقل الذي جعله الله فينا فنستثير هذا العقل، وننميه. وهذه هي الوظيفة الأولى، أما الوظيفة الثانية التي هي (التزكية) فان معناها أن الرسول صلى الله عليه وآله يقوم بتصفية قلب الإنسان من الرواسب؛ من الحقد والحسد والعصبية والضغينة والأنانية ومن كل الصفات السيئة التي جبل عليها الإنسان.

ففي ضمير الإنسان مجموعتان من الصفات؛ الصفات الايجابية، والصفات السلبية. والرسول صلى الله عليه وآله يربي الناس على الصفات الايجابية ويزكيهم؛ أي يطهر نفوسهم من تلك الصفات السلبية.

الواجب الثالث هو واجب التعليم؛ أي إن النبي صلى الله عليه وآله يقوم بمهمة تبيين وتفسير تلك الآيات. وهذا يدل على أن الإنسان بحاجة إلى من يفسر القرآن، فلقد بعث الله تعالى الأنبياء مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب، وفي هذا دلالة على أننا بحاجة إلى من يفسر الكتاب حتى بعد الرسول. فالرسول وحده لا يكفي من دون الكتاب، والكتاب أيضاً وحده لا يكفي. ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا، كتاب الله وعترتي"، (١) ذلك لان الكتاب بحاجة إلى إمام، وقد كان الرسول في وقت حياته هو الإمام.

وما زلنا حتى الآن ونحن نعيش في عصر الغيبة بحاجة إلى فقيه. فالذي يدعي أنه في غنى عن الفقيه، وأنه يستطيع الاستغناء عنه بالرسالة العملية هو مخطئ. وللاسف فان هذه النظرية شاعت في بعض الأيام وفي بعض المحافل، فبدأ البعض يطلق شعار إننا لا نحتاج إلى علماء، لأن لدينا كتاباً نقرؤه ونصبح متدينين من خلاله، فلا مرجعية ولا علماء.

إن هذه النظرية نظرية فاشلة وبعيدة عن الواقعيات، فبالرغم من وجود هؤلاء العلماء الأعلام، ومع ما يتمتعون به من علم، وتقوى، وزهد، وجهاد في سبيل الله، نجد الناس منحرفين، فكيف إذا لم يكونوا موجودين؟!

---

(١) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٨٥.

فنظرية "حسبنا كتاب الله" هي نظرية مغلوطة سواء في زمان الرسول صلى الله عليه وآله أم بعده. فالرسول صلى الله عليه وآله يقوم بالتعاليم، والتعليم يعني توضيح وتفسير القرآن. فالرسول صلى الله عليه وآله يعلم أمرين؛ الكتاب، والحكمة، كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾؛ أي إنه يوضح هذا الكتاب ويفسره.

والتأريخ يثبت لنا أن المسلمين كانوا يقرؤون القرآن، وعندما يصادفون آيات لا يستطيعون فهمها فانهم يعودون إلى الرسول صلى الله عليه وآله ليفسر لهم تلك الآيات.

ماهي الحكمة

أما الحكمة فهي أن تتعلم اسلوب العيش. فالكتاب يرتبط بالدين والشريعة والأحكام والاخلاق، أما الحكمة فانها تتصل بحياة الإنسان. فالإسلام ليس مقتصراً على ما بعد الحياة والموت، بل هو دين الحياة ودين ما بعد الحياة في نفس الوقت. فالحديث الشريف يقول: "من لا معاش له لا معاد له"، بل إنه يقول: "اللهم بارك لنا في الخبز ولا تفرق بيننا وبين الخبز فلولا الخبز ما صمنا ولا صلينا ولا أدينا فرائض ربنا" (١) أي إن الإنسان يأكل الخبز ليتقوى على عبادة ربه، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (القصص/٧٧) و ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ (البقرة/٢٠١).

وهكذا فان الأمر الأول الذي يؤكد عليه ربنا عز وجل هو جانب الدنيا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً...﴾، لأن الإنسان الذي يمتلك في

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٦، ص٥٦١.

الدنيا الصحة والعافية والرفاه والسعادة والعزة والاحترام والكرامة والحرية... فان هذا الإنسان سيعبد ربه حق العبادة. أما الإنسان الذي يعش في الذل والفقر، والذي فكره مشغول بهموم الدنيا، فانه لا يستطيع عبادة ربه.

إن الدين هو أن يعيش الإنسان سعيداً في الدنيا والآخرة، والقرآن يبين لنا هذه الحقيقة في تلك الآية الكريمة.

وهنا أعود لأقول إن الحكمة تتصل بالحياة، فاذا رأينا إن المسلمين يعيشون اليوم أوضاعاً متدهورة، فلنعلم إننا إما أن نكون قد تركنا الدين كله، وإما أن نكون قد أخذنا بجزء منه وتركنا الجزء الآخر.

ولتوضيح ذلك اضرب لكم أمثلة ثلاثة، هي التي تهمني في الواقع:

١- لقد أمرنا القرآن الكريم بصريح العبارة بالتعاون في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ (المائدة/٢)، فهل نحن منفذون لهذا الأمر أم لا؟ في حين إن الإسلام لم يأمرنا بالوحدة فقط في قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران/١٠٣)، بل إنه أمرنا أيضاً بالتعاون، لأنه التعاون درجة متقدمة من الوحدة. فالمجتمع يتحد في البدء، ومن ثم يتعاون، وقد أمرنا القرآن بالتعاون في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾.

٢- إن القرآن أمرنا بالمسارعة في الخيرات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ (آل عمران/١٣٣)، ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعاً﴾ (البقرة/١٤٨)، وأمرنا بالحركة والنشاط والفاعلية: ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ﴾ (الانشقاق/٦)، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا

سَعَى﴾ (النجم/٣٩)، كما وأمرنا القرآن بالعمل الصالح ولو بمقدار ذرة: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾ (الزلزلة/٧)، فحتى لو كانت عندك ذرة واحدة من النعم، فعليك أن لا تقصر فيها، بل أضفها إلى قائمة أعمالك.

بل إن بصيرة القرآن تهدينا أساساً إلى هذه الحقيقة، فتقول إن الإنسان يوم القيامة ستكون أمامه كفتان؛ كفة الحسنات، وكفة السيئات. وإن من الواجب عليه أن يقوم بحسنات أكثر، لكي ترجح عنده كفتها فيدخل الجنة. فلنحاول أن نقوم بأي عمل صالح، لان هذه الأعمال الصالحة سوف تجتمع شيئاً فشيئاً في كفة الحسنات.

إن هذه البصيرة القرآنية تجعل الإنسان دائم الحركة، لأنه سيفكر في أن يحصل على حسنات أكثر فأكثر، فتراه في حالة استباق ومسارعة. فان حضر جلسة قرآن - مثلاً- تراه يستمع إلى القرآن ويسبح في نفس الوقت، ولذلك فان الإنسان المؤمن تراه دائم التوجه، ودائم الحركة والنشاط.

٣- أما الصفة الثالثة التي تشكل ثلاثي الحكمة في الحياة فهي صفة الواقعية، وهي بالتعبير القرآني (الحق)؛ أي أن يكون الإنسان مع الحق، وأن يعطي الآخرين حقوقهم، ويعترف بها. فكما إنك موجود فإن الآخرين موجودون أيضاً، وكلمة الحق تعبر عن هذا الواقع.

الحكمة سر تقدم الأمة

إن هذا الثلاثي هو الذي يستطيع أن يخلق من الأمة الإسلامية أمة نشيطة ومتقدمة، ولكننا فقدنا هذه الصفات الثلاث للأسف الشديد. ومن أجل توضيح ذلك أضرب فيما يلي بعض الأمثلة؛ المثال الأول عن الدوائر الحكومية، فانت تذهب إلى الدائرة لأجل معاملة معينة، ومن

مشاكل العاملين في هذه الدوائر أهم يقولون لك بكل بساطة إننا لا نستطيع تمشية معاملتك اليوم فراجعنا غداً. ذلك لأن هذا الموظف الذي يجب عليه أن يعمل ثماني ساعات، لا تراه يعمل إلاّ ربع ساعة. وبالطبع فانه لا يستطيع إنجاز أعمال الناس في الربع ساعة هذه.

هذا في حين إن تقرير الأمم المتحدة يشير إلى أن خلاصة عمل المواطن الياباني تصل إلى سبع ساعات من مجموع ثماني ساعات، أما الأميركي فانه يعمل ست ساعات من مجموع ثماني ساعات.

ولنترك الآن الموظف لنذهب إلى عالم الدين، ولنرى أنه يعاني من نفس المشكلة. فعالم الدين الذي يقيم في الاسبوع مجلساً واحداً، ويؤلف خلال سنة كاملة كتاباً واحدة.. هو غير العالم الذي لا ينام ليله إلاّ وقد أنهى تأليف كتاب، وقد بلغت تآليف بعض علمائنا مئات الكتب، ومثل هذا العالم يختلف بالطبع عن ذلك الذي لا يؤلف طيلة حياته سوى كتاب واحد، في حين ان عالم الدين يجب أن يكون نشيطاً ومتحركاً.

وعلى هذا فان القضية المهمة الأولى هي الفاعلية، ثم التعاون. فما الذي يمنع من أن نعمل مع بعضنا، والى متى هذه التفرقة والأفكار المختلفة؟ في حين إن القرآن يحثنا على الوحدة، ويعتبر التفرقة من الدوافع الشيطانية: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾ (الاسراء/٥٣)؛ أي إن الشيطان يقوم بدور تفتيت وتقسيم وإبعاد المسلمين عن بعضهم.

أما الأمر الثالث فيتمثل — كما قلت — في الواقعية. فكل إنسان يريد أن يعترف بنفسه على حساب الاعتراف بالآخرين، فاذا كنا نعيش مع بعض فلا بد أن نحترم الآخرين، ولا بد أن يحترم كل واحد منا الآخر، كما يقول تعالى: ﴿وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ (الاعراف/٨٥).

فكل انسان له حق، وله دور في هذه الحياة، ولا بد أن يكون رأيه محترماً. أما أن يفكر كل واحد في حدود نفسه، ولا يفكر في الآخرين، فهذا ما يؤدي إلى هذا الواقع المنظور.

وخلاصة القول؛ إن هناك ثلاثة أمور من الحكمة الإلهية، وهي:

١- الفاعلية والحيوية والنشاط.

٢- التعاون.

٣- الواقعية.

ومن خلال هذه الأمور سنجد الطريق إلى تغيير واقعنا إن شاء الله تعالى.

الفصل الثاني

الإسلام سيرة مثلى

الإسلام بين الأصالة والتطوير

كلّما تجدّدت الروح الإسلامية في النفوس، وحدث التحوّل والتطوّر في الظروف؛ كلّما ازداد طرح هذا السؤال المهـــمّ؛ ما هي الحـــدود الواضحة بين التطوير والاصالـــة، وبين التغيّر والثبات؟

لا ريب أنّ الدين ذو جانبين؛ جانب ثابت، وجانب متطوّر. وعلى سبيل المثال: فان الصلاة، والصيام، والحج، وسائر الشعائر تمثّل جوانب ثابتة في الشريعة الإسلامية، ولكنّ المسجد الذي يصلّي فيه الإنسان المسلم، والملابس التي يرتديها وما إلى ذلك، لا بدّ أن تختلـــف من زمـــن لآخر.. وكمثال آخر؛ فان الإسلام يهدف إلى تطبيق العدالـــة الإجتماعية، ويريد للانسان التقدم والرفاه والكرامة، ويبغي توفـــير الوسائل المادية المريحة للإنسان إلى جانب الروح المعنوية العالية، ويريـــد بناء الشخصية الإنسانية المتكاملة... ولكن هل من الممكن أن تطبق هذه القيم في كل عصر باسلوب متشابه، وكيفية متماثلـــة؟

الجواب بالنفي طبعـــاً؛ وبناءً على ذلك، فمتى يجب علينا أن نأخـــذ بالنصّ، ومتى يصبح من المتعيّن علينا أن نطوّر النص باجتهادنـــا وتفكيرنـــا؟

الفهم الخاطئ للإسلام

وبناءً على ذلك فقد أثبتت التجارب أنّ هناك جانباً متطوّراً في الإسلام علينا ان نلتفت إليه، وبالإضافة إلى ذلك فقد ثبتت حقيقة أخرى وهي أنّ هناك فئات عديدة من المثقفين أو حتّى من الذين كانوا يدرسون في الحوزات العلميّة أخذوا من الإسلام جانباً، وخلطوه بالأفكار الأخرى، سواء كانت اشتراكية أو رأسمالية.

وللأسف فانّ البعض من الناس يتصوّرون انّ هذه المشكلة مشكلة عابرة من الممكن تجاوزها بسهولة، فيتوهّمون ان من الممكن ان يراجعوا الرسالة العمليّة، او أحد الكتب الفقهية المفصّلة، ليجدوا فيها شروطاً وافية حول هذه الأفكار المتطرّفة ذات اليمين، وذات الشمال.

وفي الواقع فانّ القضيّة ليست بهذه السهولة، علماً انّ هناك أشخاصاً لم ينحرفوا بكامل وعيهم بل بسبب جهلهم بالإسلام، رغم انّهم قرأوا هذه الكتب التي نقرؤها، وبالرغم من انّهم يتلون القرآن، ويدرسونه.

وبناء على ذلك، فليس من السهل بمكان ان يفهم الإسلام الفهم الصحيح، فمن الممكن بل من المؤكدّ أنّ هناك جماعات تتعّمد التحريف، ومن الناحية التاريخيّة كان هناك الخوارج الذين التزموا بالكثير من المظاهر الدينية، كما انّ الذين خرجوا لمحاربة الإمام الحسين عليه السلام كانوا هم أيضاً يؤدّون الفرائض والواجبات الدينية.

وعلى هذا فان فهم الإسلام الأصيل البعيد عن الأفكار الغربية والشرقية الدخيلة ليس عمليّة بسيطة، فمن الممكن ان يعبد الإنسان شيئاً ما يتصوّر أنه الله تعالى، ولكنّه بعد سبعين سنة من العبادة حسب تصوّره يكتشف إنه كان يعبد الطاغوت، والأهواء، أو الشيطان، أو كلهم مجتمعين...

والسبب في ذلك انّ الإنسان المسلم لا يعرف بالضبط هل إنّ عليه أن يلتزم التزاماً حرفيّاً بالنصوص؟ فان أراد أن يلتزم بهذا الشكل، فانه سرعان ما يكتشف أنّ هناك ظواهر واحداثاً جديدة تطرح على الساحة لا يدري ما رأي الإسلام فيها، وللأسف فإنّنا نجد بعض الناس يفسّرون القرآن الكريم حسب أفكار وتصوّرات معيّنة يحملونها، فيتّبعون اهواءهم دون هدى الله.

الإسلام ومسؤولية العلماء

ترى كيف يجب ان نحلّ هذه المشكلة، ومن الذي يجب ان يتحمّل هذه المسؤولية؟

إنّ من الطبيعي ان يضطلع بهذه المسؤولية الخطيرة علماء الدين الواعون، الملتصقون بالنصوص الدينية، والعارفون بالروح الحقيقيّة للاسلام، والقيم التي ينشروها، والمطّلعون على الأسلوب الذي يستخدمه القرآن، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأئمة المعصومون، والفقهاء الكبار.

هؤلاء العلماء هم المسؤولون عن حلّ تلك المعضلات، وهم الذين جاءت فيهم الرواية الصحيحة التي تقول: "وأمّا الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فانّهم حجّتي عليكم، وانا حجّة الله"، (١) فهم الذين يستطيعون التمييز بين الحلال والحرام، وبين التطوير والتغيير والتقدّم، وبين الانحراف والشذوذ والضلالة والبدعة.

ومن الطبيعي أن يكون بين طلاّب المدارس العلميّة وهم يدرسون الآن الكتب الفقهية والدينية من يجب أن يتحمّل هذه المهمّة الصعبة في

---

(١) وسائل الشيعة، ج١٨، ص١٠١.

المستقبل، فهناك الآن قوانين عديدة ومختلفة في العالم؛ هناك مثلاً: القوانين التجارية، والزراعية، والصناعية..وما إلى ذلك، والآن يوجد في العالم أكثر من سبعين ألف قانون، وهي قوانين متطوّرة وبحاجة إلى من يعرف الإسلام حقّاً، ويعرف طبيعة المجال الذي وضعت فيه، ثم يستلهم من القيم الإسلامية بحيث تصبح هذه القوانين منسجمة مع أحكام الشريعة الإسلامية. ولذلك فأننا بحاجة إلى المجتهدين والمفكّرين، وهذه الحاجة ليست آنية عاجلة، بل هي دائمة ومتطوّرة.

من هنا ليس من السهولة بمكان ان نعي حقيقة أحكام الإسلام لأسباب منها:

١- انّ المسلمين أهملوا فهم الإسلام، والتعمّق فيه.

٢- انّ الإسلام بمصادره الأصيلة الخالصة بعيد عن عصرنا بمقدار أربعة عشر قرناً، فالمفسّرون الحقيقيون للقرآن ليس لهم وجود بيننا، وكتب الفقهاء ليست بتلك السهولة والبساطة بحيث يستطيع الإنسان العادي أن يستقي منها المعلومات، كما إن الأحاديث والروايات متداخلة، ولغتها مختلفة عن لغتنا، وليس من السهولة أن نفهم أساليبها، والدليل على ذلك إن المجتهدين والفقهاء يتعبون أنفسهم لسنين طويلة، ويواصلون البحث والتحقيق ليل نهار، ومع ذلك فأنهم قد لا يصلون إلى نتائج أكيدة في بعض المسائل، ولذلك فإننا كثيراً ما نجد في كتبهم، ورسائلهم العملية كلمات من مثل: الأحوط، والأقوى، والأولى...

وفي المقابل فإذا أراد شخص ان يدوّن الإسلام الذي في ذهنه فان باستطاعته ان يأخذ قلماً ويكتب مواد قانونيّة، ويبدّل، ويغيّر دون الإلتزام بنصوص، إلا أنّ هذا ليس من الإسلام في شيء، بل هو الضلال بعينه ولا

يمكن ان ينفع الأمة الإسلامية، اما الإسلام الذي نريد ان نستنبطه من القرآن فاننا لا نستطيع الوصول إليه إلا إذا تدبّرنا- على الأقلّ- في القرآن الكريم من بدايته إلى نهايته، وعرفنا الكلمات والمصطلحات القرآنية معرفة دقيقة.

وهناك بعض الآيات القرآنية يتوقف عندها المفسّرون ويصفونها بأنّها من الآيات المتشابهة التي تحتاج إلى التأويل، وهكذا الحال بالنسبة إلى الروايات والتأريخ الإسلامي، فاننا يجب ان نحيط بهما علماً.

انّي أريد أن أستنتج من كلّ ذلك حقيقة واحدة؛ وهي إن الذي يريد أن يقوم بهذا الدور البنّاء العظيم- أي دور استنباط الأحكام الشرعيّة- ويكيفها مع حاجات ومقتضيات العصر، والذي يريد أن يهدي الناس إلى القوانين الإلهية، ويصبح وريثاً للأنبياء عليهم السلام كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "أن العلماء ورثة الأنبياء"، (١) ويكون نظيراً لانبياء بني إسرائيل كما جاء في حديث آخر: "علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل"، (٢) والذي يريد أن يكون ممثلاً لحكم الله في الأرض، وحكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام... انّ الذي يطمح إلى بلوغ هذه المرتبة العالية عليه أن يخصّص لهذا الطموح العالي المقدار المناسب له من الإمكانيات، والارادة، والعزم، والتصميم.

فمن يريد الوصول إلى السوق القريب من منطقته، فانّه يحتاج إلى ارادة بقدر مائة خطوة يخطوها إلى السوق. أمّا الذي يريد أن يصل إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية، فيجب أن تكون إرادته أكبر حسب بعد المكان

---

(١) بحار الأنوار، ج١، ص١٦٤.

(٢) المصدر، ج٢٤، ص٣٠٧.

الذي يطمح أن يصل إليه. فالذي يطمح أن يكون خطيباً بارعاً، ومؤلفاً ومفكّراً وقائداً، يجب أن تكون ارادته بقدر ما يطمح إليه، وكما قال الشاعر:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارم

فبقدر عزيمة، وارادة، وتصميم وعطاء الإنسان يكون طموحه، وتطلّعه، وبلوغه الاهداف، وتحصيله للعلم. ومن هنا فانّ الدراسات التقليدية هي أشبه ما تكون بالسدود المنيعة والحصينة التي تمنع تسرب الأفكار المغلوطة إلى أذهاننا، وعقولنا. فبقدر ما نقرأ الجرائد، ونستمع إلى الإذاعات، ونتعرّف على الأفكار الحديثة، فان هناك خطر احتمال تسرّب الأفكار الباطلة إلينا، كما تسرّبت هذه الأفكار إلى الكثير من الذين انحرفوا فيما بعد رغم ادائهم للفرائض والعبادات.

وهكذا فإنّنا بحاجة إلى سدود تمنع عنّا تلك التيارات الفاسدة، وإلى حصون تحول دون تسرّب الأفكار والثقافات الدخيلة إلى اذهاننا، وهذه الحصون تتمثّل في تطوير العلوم الدينيّة، وتقديم تفاسير مفهومة وواضحة للقرآن الكريم، وتدوين وتبويب متون الأحاديث والروايات الشريفة، وتذليل المشاكل الفقهية والاصوليّة حتى تتحقق تلك الطموحات.

وفي هذا المجال نحن بحاجة إلى جهود متواصلة دؤوبة لكي نستطيع فهم القرآن، والأحاديث الثابتة السند؛ أي أن نتدبّر تدبّراً عميقاً في مصادرنا الدينية مثل؛ القرآن والأحاديث النبوية الشريفة، ونهج البلاغة، والصحيفة السجاديّة، والأدعية وما إلى ذلك، من أجل استخلاص روحها وقيمها. وعلى سبيل المثال؛ فانّ في القرآن ستة آلاف آية، كل آية إذا أردنا أن نتفكر فيها لمدة ساعة فاننا نكون بحاجة إلى ستة آلاف ساعة لكي نفهم

القرآن الكريم.. ومع ذلك فان هناك هوامش غير واضحة تبقى بعد عمليّة التدبّر. فمن الممكن ان يتدبّر الواحد منّا في آية ويبحث فيها، ويكتب عنها، وإذا به بعد أن يتدبّر في نفس الآية من جديد يستلخص منها أفكار جديدة لم تكن قد خطرت على باله من قبل.

وعلى هذا فانّ علينا أن لا نملّ من كثرة الدراسة والتحقيق، أو أن نعتبر الدروس والكتب التي نقرؤها روتينية، بل أنّها تحتاج إلى جهد واستمرارية، ومطالعات مكثفة، وإرادة قوية، وعزم راسخ.

الدراسة الدينية ورسالة الأنبياء

الدراسة الدينية أشبه ما تكون برسالة الأنبياء التي يقول عنها تعالى فيما يتعلق برسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾ (المزمل/٥). فليس تحمّل رسالة الأنبياء بالأمر الهيّن، حتّى إنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يشفق من الرسالة التي تحمّلها، وفي كلّ مرة كان الوحي يتزل عليه فيها، كانت هناك حالة جديدة تعتريه. والله سبحانه وتعالى لم يكن يحمّل انبياءه رسالاته، إلا بعد أن يمرّرهم بتجارب واختبارات صعبة.

وبناءً على ذلك فأنّ الذي يريد أن يقتدي بالأنبياء والأئمة، فانّ عليـــه أن يستعدّ، ويزكّي نفسه بحيث لا يكون صدره ضيقاً، وصبره محدوداً، واستعداده ضعيفاً. فالأجر أنما يؤتى على قدر المشقّة، وخير الأمور أصعبها. ونحن لم نأت إلى هذه الحياة لكي نستريح فيها، بل لكي نحقق الطموح والتطلع اللذين خلقنا الله عز وجل من أجلهما في المستوى الإنساني المطلوب.

فلنصمّم، ولنعقد العزم الراسخ على الوصول إلى ذلك المستوى، وإذا ما استطعنا النجاح في هذه المهمّة سنكون مصداق الحديث النبوي الشريف: "يا علي نوم العالم أفضل من عبادة العابد الجاهل"، (١) والحديث القائل: "حضور العالم خير من شخوص الجاهل" والحديث: "إن فضل العالم على العابد كفضل الشمس على الكواكب". (٢)

إنّ علينا أن نفكّر في هذه الأحاديث، فهي لم تولِ هذا الاهتمام للعالم، ولم تفضّله على الشرائح الاخرى إلا لانّ العالم يبذل من الجهود أكثر مما يبذله العابد. فالاستمرار في الصلاة، والصيام والحج.. ليس كصعوبة الدراسة الواعية في سبيل الله تعالى؛ فمن الممكن ان يخدعنا الشيطان، والنفس الأمّارة بالسوء، بالإضافة إلى أنّ هناك عوامل كثيرة تمنعنا من مواصلة الدراسة، فلكل شيء آفة، ولكنّ للعلم آفات.

إن هذه الصعوبات التي يواجهها كلّ من العالم وطالب العلم، لابد وأن تتمخّض عن ثواب جزيل. فكلمة علم واحدة يكتبها عالم الدين من الممكن أن تتحوّل في المستقبل إلى رسالة لآلاف الملايين من البشر، فكلّ من تعبّد في تطبيق شيء ما، فانّ ثوابه سيسجّل له.

وعلى هذا فانّ التعب الذي نعاني منه في هذا الطريق وراءه ثواب جزيل، والأكثر من ذلك إننا سنحلّ مشكلة حقيقية تواجه المسلمين، فلقد ظهرت الآف البدع، وعلى العالم أن يظهر علمه وإلا فلعنة الله عليه. وأنا أشير هنا إلى واقع مأساة نعيشها، وأخشى أن تعمّ هذه المأساة المسلمين

---

(١) بحار الأنوار، ج٧٤، ص٥٧.

(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص١٩.

أجمعهم؛ فلقد انتشرت الأفكار المنحرفة التي ترى أن الإسلام له صبغة غربية أو شرقية.. وقد انتشرت هذه الأفكار المنحرفة الشاذّة بسبب عدم وجود مقدار كاف من الوعي الديني بين أفراد الامة، وخصوصاً بين الطبقة المثقّفة، وعدم وضوح الرؤية تجاه الكثير من القضايا. وفي المستقبل من الممكن ان تتورّط قطاعات أوسع من المسلمين في مثل هذه المشاكل.

ولكي نحول دون انتشار هذه الإنحرافات لابدّ أن نفهم الإسلام، ولكي نفهمه يتعيّن علينا أن نبذل الجهد من أجل فهم النصوص الدينيّة المتمثّلة في القرآن الكريم، والأحاديث والروايات الشريفة، لكي يكون بمقدورنا إشباع حاجات الإنسان المعاصر، وتكييف الشريعة الإسلاميّة وفق الحاجات المتجدّدة للعصر الراهن.

الإسلام بين النظرية والتطبيق

العقل هو الحجّة البالغة بين الله تقدّست اسماؤه وبين خلقه. فهو تعالى اودع في ضمير الإنسان نوراً يستطيع به أن يميّز الحق عن الباطل، وهو يحاسب الناس على قدر ما آتاهم من العقل.

الدعوة الإسلامية دعوة عقل

وفي هذا المجال صعد رسول الله ذات يوم الصفا فقال: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش فقالوا: مالك؟ قال: أرأيتكم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدقونني؟ قالوا: بلى، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد. (١)

وهكذا نرى كيف انّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقبل أن يكشف لهم عن الدعوة الإلهية، والرسالة الربانية، أوضح لهم فكرة، وعرض عليهم الدعوة من خلال مخاطبة عقولهم، فأثبت لهم أوّلاً كيف أنه صادق أمين، وكيف أنهم يعرفونه بالصدق والأمانة.. وبناءً على ذلك فانّ ما سيقوله لهم لابدّ وأن يكون حقاً. وبذلك فقد عرفه الناس بعقولهم، وهذه هي الحجّة بين الله تبارك وتعالى وبين جميع الخلق.

---

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص١٩٧.

الاستجابة للإسلام

وهنا يتبادر إلى الاذهان السؤال المهم التالي: نحن ندعوا إلى الإسلام وإلى رسالات الله، فما هو السبب في عدم استجابة الناس لنا، أو ليست رسالة الإسلام صادقة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتحثّ على الحسنات، وتردع عن السيّئات، فلماذا -إذن- تعرض الغالبيّة العظمى من الناس عن آيات الله جل وعلا؟

في هذا الفصل سوف نركز على مناقشة هذه النقطة الحساسة، ونحاول أن نجيب على التساؤلات السابقة.

في اليوم الأوّل من البعثة النبوية الشريفة، وعندما دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الناس إلى الإسلام بادروا إلى الالتفاف حول هذه الرسالة، فعندما حمل جعفر الطيار رسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحبشة سأله ملك الحبشة قائلاً: ما هي هذه الرسالة؟ فقرأ له جعفر آيات من القرآن الكريم، وإذا هذا الملك يقع على الأرض ساجداً، ويسلم على يدي جعفر بن أبي طالب كما في رواية ابن مسعود حيث قال -بعد كلام طويل-: فتناول النجاشي عوداً من الأرض فقال: يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ما يزنّ هذا... ثم قال النجاشي: مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأنه الذي بشّر به عيسى بن مريم.. (١)

ترى ماذا عدا عمّا بدا اليوم؟! انّ القرآن الكريم يقرأ بكرة وعشياً في الإذاعات، ومحطّات التلفزيون، وتطبع نسخه بالملايين، وتوزّع في كلّ انحاء العالم، علماً انّ هذا القرآن هو نفس القرآن الذي نزل على قلب

---

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص٤٢٠.

النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فما هو السبب الذي يكمن وراء عدم التزام الناس به والاقبال عليه؟

من أجل عرض اجابة صحيحة ومقنعة على هذا السوال نقول: إنّ الرسالة عندما يدعو إليها أحد، فانّ الناس يستمعون إلى كلام في البدء، ويدقّقون في ألفاظه، ثم يطالبونه بعد ذلك بالعمل، بحيث تكون اعماله مطابقة لكلامه، لانّ الناس لا ينظرون إلى الكلام **فقط.**

النبي (ص) النموذج الاسمى

والرسول صلى الله عليه وآله وسلم عندما دعا قومه إلى الإسلام فانّ دعوته لم تكن مجرّد كلمات، بل كانت كلمات وراءها عمل. فلقد دعاهم إلى عبادة الله وكان في نفس الوقت أكثر الناس عبادةِ، حتّى تورّمت قدماه من كثرة العبادة، وكان لديه حجر يسمّى بـــ (حجر الجوع) يربطه على وسطه لفرط جوعه ثم يقف للعبادة، فإذا ضعف و لم يستطع حمل هذا الحجر، ربط جسمه بحبل إلى السقف لكي لا يسقط من شدّة الضعف، حتى نزل بحقّه قوله تعالى: **﴿طه * مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ لِتَشْقَى﴾** (طه/١-٢).

كما دعاهم صلى الله عليه وآله وسلم إلى البرّ وكان أبرّ الناس، وإلى صلة الرحم وكان أوصلهم للرحم، وإلى خدمة المجتمع والصدق والاحسان.. وإلى جميع المكرمات، وكان أوّل العاملين بها. ثم بنى بعد ذلك مجتمعاً في المدينة على أساس الاخوّة والمساواة أمام القانون..

قال أبو جعفر عليه السلام: "إن رجلاً كان من أهل اليمامة يقال له: جويبر أتى رسول الله صلى الله عليه وآله منتجعاً للإسلام فأسلم وحسن

إسلامه، وكان رجلاً قصيراً دميماً محتاجاً عارياً، وكان من قباح السودان، فضمّه رسول الله صلى الله عليه وآله لحال غربته وعراه وكان يجري عليه طعامه صاعاً من تمر، وكساه شملتين، وأمره أن يلزم المسجد ويرقد فيه بالليل،.... رسول الله صلى الله عليه وآله نظر إلى جويبر ذات يوم برحمة منه له ورقّة عليه، فقال: يا جويبر لو تزوّجت امرأة فعففت بها فرجك وأعانتك على دنياك وآخرتك، فقال له جويبر: يا رسول الله بأبي أنت وأمّي من يرغب فيّ؟ فوالله ما من حسب ولا نسب ولا مال ولا جمال، فأية امرأة ترغب فيّ؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا جويبر إن الله قد وضع بالإسلام من كان في الجاهلية شريفاً، وشرّف بالإسلام من كان في الجاهلية وضيعاً،.... ثم قال له: انطلق يا جويبر إلى زياد بن لبيد فإنه من أشرف بني بياضة حسباً فيهم فقل له: إني رسول رسول الله إليك وهو يقول لك: زوّج جويبر ابنتك الذلفاء، قال: فانطلق جويبر برسالة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى زياد بن لبيد وهو في منـــزله وجماعة من قومه عنده، فاستأذن فأُعلم فأذن له وسلّم عليه، ثم قال: يا زياد بن لبيد إني رسول رسول الله صلى الله عليه وآله إليك في حاجة فأبوح بها أم أسرّها إليك؟ فقال له زياد: بل بح بها فإن ذلك شرف لي وفخر فقال له جويبر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لك: زوّج جويبر ابنتك الذلفاء، فقال له زياد: أرسول الله أرسلك إليّ بهذا يا جويبر؟ فقال له: نعم ما كنت لأكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال له زياد: إنّا لا نزوّج فتياتنا إلاّ أكفاءنا من الأنصار فانصرف يا جويبر حتى ألقى رسول الله صلى الله عليه وآله فأُخبره بعذري، فانصرف جويبر وهو يقول: والله ما بهذا أُنزل القرآن ولا بهذا ظهرت نبوّة محمد

صلى الله عليه وآله، فسمعت مقالته الدلفاء بنت زياد وهي في خدرها، فأرسلت إلى أبيها أدخل إليّ، فدخل إليها فقالت له: ما هذا الكلام الذي سمعته منك تحاور به جويبراً؟ فقال لها: ذكر لي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أرسله، وقال: يقول لك رسول الله صلى الله عليه وآله: زوّج جويبراً ابنتك الدلفاء، فقالت له: والله ما كان جويبر ليكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله بحضرته فابعث الآن رسولاً يردّ عليك جويبراً، فبعث زياد رسولاً فلحق جويبراً فقال له زياد: يا جويبر مرحباً بك، اطمئن حتّى أعود إليك، ثم انطلق زياد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له: بأبي أنت وأمّي إنّ جويبراً أتاني برسالتك، وقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: زوّج جويبراً ابنتك الدلفاء، فلم ألن له في القول، ورأيت لقاءك ونحن لا نزوّج إلاّ أكفاءنا من الأنصار، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: يا زياد جويبر مؤمن، والمؤمن كفو للمؤمنة، والمسلم كفو للمسلمة، فزوّجه يا زياد ولا ترغب عنه، قال: فرجع زياد إلى منـــزله ودخل على ابنته فقال لها ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله، فقالت له: إنك إن عصيت رسول الله صلى الله عليه وآله كفرت، فزوّج جويبراً فخرج زياد فأخذ بيد جويبر ثم أخرجه إلى قومه فزوّجه على سنّة الله وسنّة رسوله". (١)

بناء المجتمع الجديد

وهكذا استطاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يبني مجتمعاً جديداً. فالإسلام عندما جاء أدّى إلى بناء مجتمع قائم على أساس الفضيلة،

---

(١) بحار الأنوار، ج٢٢، ص١١٧، ح٨٩.

والتقوى، والمحبة. وعلى سبيل المثال؛ فانّ الامام زين العابدين عليه السلام زوّج المرأة التي قامت بتربيته من عبد له، كما كانت له امة اطلق حرّيتها في سبيل الله تعالى ثم تزوّجها بعد ذلك. فما كان من الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان إلاّ أن بعث إليه برسالة انتقده فيها على تصرّفه هذا، فرّد عليه الامام عليه السلام بانّ الله وضع بالإسلام كلّ عزيز، وأعزّ كلّ ذليل، ولا لوم إلاّ لوم الجاهليّة؛ أي انه افهم الحاكم الأمويّ بطريقة غير مباشرة انّه انسان جاهليّ، لأنّه ما يزال يحمل في نفسه حميّة الجاهليّة، والإسلام ليست فيه مثل هذه الحمية المرفوضة.

إنّ الإسلام بنى المجتمع الرسالي المتكامل القائم على التقوى والاحسان والاخوّة، وعندما رأى الناس هذا النموذج الإسلامي المثالي انطلقوا إليه، وآمنوا به وبدينه، علماً إنّ الإسلام لم يفتح الجزيرة العربية بالسيف، فلقد كان أهلها محاربين شجعاناً، بل فتح قلوبهم.

ولقد هرع كلّ من سمع بانّ في الجزيرة مجتمعاً جديداً إلى المدينة ليرى الحضارة والمدنيّة والتقدم والمحبّة والمواساات والرحمة... فلم يَرَ فقيراً ولا مسكيناً، ولا طبقيّة، ولا عنصريّة، بـــل رأى انّ المجتمع مجتمع فاضل، ووجد أنّ من الأفضل له أن يكون ضمن هذا المجتمع، فدخل الجميع في دين الله كما يشير إلى ذلك القرآن الكريم في قوله: **﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾** (النصر)

فالقرآن الكريم لم يقل (يُدْخَلـــون) – بضمّ الياء وفتح الخاء – بل قال (يَدْخُلـــون) –بفتح الياء وضمّ الخاء–؛ أي أنّهم دخلوا في الإسلام طواعيـــة.

الجماهير تنظر إلى أعمالنا

وهكذا فان أخـــلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وسلـــوك المسلمين، ونموذج المجتمّع الإسلامي، كلّ ذلك هو الذي جذب الناس إلى الإسلام. ونحن اليوم ندعو إلى الإسلام والناس يوجّهون أنظارهم بدقّة إلى أعمالنا وواقعنا المتردّي البعيد عن الإسلام؛ فإذا بالكذب متفشّ، وحالة التفرقة والغيبة والتهمة والفحشاء قائمة وشائعة، والناس كسالى ليس لهم اندفاع إلى التحرّك والعمل، وليسوا حضاريّن ولا عقلانيّين.. فما الذي يجذب الناس في مجتمعنا حتى يكونوا مؤمنين، وهل الإسلام يقتصر على هذه الركعات القليلة التي نؤدّيها؟

الجواب بالنفي طبعاً، فنحن عندما ندعو الناس إلى الإسلام، فانّ علينا أن ندعوهم في نفس الوقت إلى العمل؛ أي أنّ يكون المجتمع الذي نريد بناءه مجتمعاً حضارياً. فعلينا عندما نريد - مثلاً- ان نؤسس مجتمعاً باسم حركة، أو تنظيم، أو جمعيّة، أو مؤسّسة خيريّة.. أن يكون هذا المجتمع أوّلاً وقبل كلّ شيء متّسماً بالفضائل والمكرمات، التي أمر بها الإسلام. أمّا اذا ظهرت الخلافات والنـــزاعات بيننا منذ بدء تأسيسنا للتجمّع، ولسان حال كلّ واحد منّا يقول: أن تنظيمي أحسن من تنظيمك، وجماعتي أفضل من جماعتك، ورحنا ننادي بالفخر، والعصبيّة والحميّة، والنيل من شخصيّات الآخرين، فانّ هذا الكيان لا يمكن أن يكون إسلاميّاً، ولا يكفي أن نطلق عليه صفة الإسلام ليكون إسلامياً، بل يجب ان يكون مطبّقاً لأحكام وتعاليم الإسلام.

وبطبيعة الحال فانّهم عندما رأوا ذلك من الحركات الإسلامية فانّهم تنحّوا جانباً، وقالوا: إذا كان الإسلام هكذا فنحن لا نريده. فالمنتمون إلى

الحركات الإسلامية يملكون عقلاً، وهذا العقل يقول لهم أنّ الاختلاف والصراع، والمشاكل والسباب، والغيبة والتهمة، والفرديّة والذاتية.. ليس من الدين في شيء. فالله سبحانه وتعالى هو ارحم الراحمين، وهو للناس كلّهم، وليس لجماعة دون أخرى.

وهكذا فإنّ السمة الأساسيّة لمجتمعاتنا هي التخلّف، حتّى يبدو وكأنّ الإسلام إذا انتشر في بلد ما فأنّه ينشر التخلّف والكسل والتقاعس؛ وهذا في حين انّ المجتمع الإسلامي هو مجتمع البناء والتحرّك والنهضة ومجتمع الحركة والعمل.

ولعلّ السبيل الوحيد لتطوّرنا وتقدمنا هو ان تسودنا روح التعاون والتلاحم، ولكنّ مجتمعاتنا – للأسف الشديد– ترى الاختلافات، والصراعات سائدة بين أفرادها؛ فالأب لا يعمل مع ولده، والأخ لا يعمل مع أخيه، لأنهم غير متّفقين. في حين أنّ القرآن الكريم يأمرنا بالتعاون قائلاً: **﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾** (المائدة/٢)

إلا أنّنا نعيش منعزلين عن بعضنا البعض، فإذا بالتنظيم يصبح تنظيمين، والتنظيمين يتحوّلان إلى عشرة تنظيمات، فنحن نعيش حالة دائمة من الفرقة والتمزّق. ومن المعلوم إنّ هذا السلوك بعيد كلّ البعد عن الإسلام، وأننا مهما دعونا الناس إلى الدين فإنّهم سوف لا ينصتون إلى كلامنا، لأنهم ينظرون إلى سلوكنا وأعمالنا قبل كل شيء.

وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام: "كونوا دعاة للناس بغير السنتكم، ليروا منكم الورع والاجتهاد والصلاة والخير، فإن ذلك داعية"، (١) أي بالعمل والسلوك المطابق لتعاليم الدين، ثم يقول عليه

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٧، ص٣٠٣.

السلام في حديث آخر قائــلاً: ".. فأنّ الرجل إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل هذا جعفري، فيسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر". (١)

الدولة الإسلامية قائمة على القيم

وبعد أن نتحول إلى اناس صادقين مع بعضنا وفي أعمالنا، فإنّنا نستطيع حينئذ أن نطبق مشروع الحكم الإسلامي، لأنّ الدولة الإسلامية قائمة على أساس القيم والمحبّة المتبادلة بين الرئيس واجهزة الدولة من جهة، وبينه وبين أفراد المجتمع من جهة أُخرى، وذلك على أساس القانون والرحمة والمروّءة. اما إذا بنينا نظام حكم يفتقر إلى هذه المزايا والمواصفات، فإنّ هذا النظام لا يمكن أن يوصف بأنّه دولة إسلامية.

إنّ فكرة تغليف أي شيء بغلاف ووضع كلمة الإسلام عليه دون وجود واقع إسلامي سليم، هي فكرة مغلوطة من الأساس. وحتّى لو افترضنا انّ هذا الشيء قد اكتسب صفة التحقق فانّ الناس سوف لا يصدّقون أنّه إسلامي، كما انّ الله تعالى سوف لن يقبله منّا، فيضحى الأمر مجرّد خداع ذاتي.

وبناء على ذلك، فإنّ علينا أن نكون نموذجاً ممتازاً لتلك الرؤية التي نقدّمها إلى الناس، وللدعوة التي تدعوهم اليها. فالكلام وحده لا يكفي، لأنّ بإمكان كلّ إنسان أن يتكلّم، فالمطلوب هو العمل، وانّ تسودنا القيم الإلهيّة، وان يفكر كلّ إنسان مسؤول يجلس وراء طاولة في تقديم الخدمات الصادقة إلى أبناء مجتمعه. فمن المخزي حقاً أن ينتبه الآخرون إلى أنّ هناك في أوساطنا ارتشاء، وسرقة، وخيانة، وصراعات...

---

(١) وسائل الشيعة، ج٨، ص٣٩٨.

الدين هو العمل

إنّ حديث الدين هو حديث العمل والتطبيق، كما هو حديث النظرية. وفي هذا المجال يقول الإمام الصادق عليه السلام: "الإيمان عمل كلّه، والقول بعض ذلك العمل"، (١) والله سبحانه وتعالى يحدثنا في سورة السجدة عن المؤمنين الذين تحوّلوا إلى أئمة وقادة يدعون إلى الهدى والخير قائلاً: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة/٢٤).

وهؤلاء المؤمنون انّما جعلهم الله عز وجل أئمة وقادة، لأنّهم يتميزون عن غيرهم بصفتين أساسيتين أشارت إليهما الآية الكريمة، وهما: الصبر واليقين، أي أنّهم يمتلكون الصبر واليقين.

حقيقتان مهمّتان

وقبل الآية السابقة يذكّرنا سبحانه وتعالى بحقيقتين مهمّتين: إنّ الإنسان الذي لا يفتح قلبه على الحقائق، ويبقيه مغلقاً ومحجوباً، فإنّه يظلم نفسه في الحقيقة، بل هو أشدّ الناس ظلماً لنفسه، وهو يشبه إلى حدّ كبير ذلك الشخص الذي يمشي في الشارع مغمضاً عينيه. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى في قوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ (السجدة/٢٢).

فمثل هذا الإنسان ظالم أوّلاً، وهو أظلم ثانياً، لأنّ الإنسان الظالم يظلم الآخرين، والإنسان الظالم يظلم نفسه، بل وجميع أجزاء وجوده كقلبه وعينه وروحه. فالذي يغلق قلبه عن الحقائق، ولا يكترث بما يقال له، فإنه

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٦، ص٢٣.

إنسان ظالم كما تصرّح بذلك الآية الكريمة السابقة. فهذا الإنسان ينتهي أمره إلى الاجرام، وارتكاب الكبائر. ومن المعلوم إنّ الله ربنا سبحانه وتعالى ينتقم من المجرمين: **﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾** (السجدة/٢٢).

الحقيقة الثانية هي تلك التي يشير إليها الله عز شأنه في قوله: **﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلاَ تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِن لِّقَآئِه﴾** (السجدة/٢٣)، فعلينا أن لا نتصوّر أنّ الإنسان يبقى خالداً في هذه الدنيا، وأنّ الدنيا دائميّة لا تنتهي. فهناك يوم للجزاء والحساب يجب أن نقف فيه لنتعرّض للمحاسبة الدقيقة الشاملة، والناقد بصير. فالمسؤولية مترتّبة على كلّ قول وفعل حتّى على وسوسة الصدر، كما يقول تعالى: **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾** (ق/١٦).

فلنأخذ هذه الحقيقة بنظر الاعتبار، لكي تتجسّد فينا الرسالة، ونكون مصاديق حقيقيّة للرسالة الإسلاميّة، وجاذبين للناس إليها من خلال سلوكنا وافعالنا.

الإسلام بين الأهداف والوسائل

للشريعة الإسلامية أهداف، ولها وسائل للوصول إلى هذه الأهداف؛ فالأهداف نطلق عليها اسم (القيم)، في حين نسمّي الوسائل بـ (الأحكام). وبعبارة أخرى، فانّ الأهداف هي الهدى في حين إنّ الوسائل هي البصائر والبيّنات.

وعلى سبيل المثال؛ فإنّ توحيد الله تعالى في الأرض والذي يعني إقامة حكمه في الأرض، وحذف الأنداد، وتحطيم الأصنام، وتجاوز الطغاة والمترفين، هو واحد من تلك القيم، بل هو الأعلى والأسمى في سلسلة القيم.

قيم الوحي

والتوحيد هو أساس الدين، والصبغة العامة للحياة، والكلمة الواحدة التي تنبسط على كل القرآن. وحرّية الإنسان تنبعث من هذه القيمة، لتشكل هي الأخرى قيمة مستقلّة تستوجب من الإنسان ان لا يكون عبداً للشهوات والطغاة والخرافات والأساطير، لأن الله سبحانه خلقه حرّاً. وهذه قيمة، ومقصد من مقاصد الشريعة، وهدف من أهداف الدين المقدّس.

وكمثال آخر؛ فإنّ العدالة هي أن لا تسمح للآخرين بأن يهضموا حقوقك، وأن يعتدوا عليك، ويتجاوزوا حدودهم.. وأن لا تعتدي أنت

بدورك على الآخرين، ولا تظلمهم. فهي -أي العدالة- قيمة من قيم الوحي، وهدف من أهداف الدين، ومقصد من مقاصد الشريعة.

والإصلاح بين الناس أن يعيشوا في سلام وحب وأمان، وأن لا يعانوا من الحروب والصراعات، ولا يعيشوا الإختلافات والنـــزاعات، والأحقاد والضغائن، وهي الأخرى قيمة وهدف ومقصد.

وسائل تحقيق الأهداف

أمّا الوسائل التي تودّي إلى تلك الأهداف فحدّث عنها ولا حرج؛ فكل الأحكام الشرعية، وأبواب الفقه تهدف للوصول إلى هذه الغايات والقيم. فمثلاً؛ نحن نقرّر أن العدالة قيمة وهدف، ولكن ما هي الوسائل المتاحة للإنسان المسلم لكي يبلغ هذه القيمة، ويحقّق هذا الهدف؟

للإجابة على هذا السؤال لابد أن نقول: انّ القضاء الإسلامي الواحد بما فيه من أحكام وقوانين تنظم العلاقة بين أفراد المجتمع الإسلامي الواحد، وأحكام الخمس والزكاة وسائر الحقوق الشرعية.. كل ذلك يمثل وسائل لتحقيق الهدف الأسمى الذي نطلق عليه اسم (العدالة). فلولا القضاء، ولولا أحكام الشرع في الحدود والديات والغرامات والضمان، ولولا أحكام الشريعة في الحقوق الشرعية مثل الزكاة والكفارات والنذور وما إلى ذلك.. أقول: لولا هذه المجموعة المتكاملة من الأحكام فإننا سوف لا نستطيع أن نحقّق العدالة، ونقضي على الفقر، والفاقة، والحاجة، والبؤس.

التشبث بالوسائل

والقضيّة الأساسية في هذا الموضوع إنّ الأمة الإسلامية ولأسباب عديدة تشبّثت بالوسائل، وتركت التفكير في الأهداف. وفيما يلي سوف

اضرب مثلاً من واقع يذكره أحد المولفين الذي كتب يقول: ذهبت إلى مسجد في أحد البلدان الإسلامية، فرأيت لافتة عريضة كتب عليها (النظافة من الإيمان)، ولّما دخلت المسجد رأيت العجب العجاب من تراكم الأوساخ، في حين انّ هناك العشرات، بل المئات من الأحكام الشرعية التي تحدّثنا عن النظافة. فهل قرأنا كتاب الطهارة في الفقه الذي يحتوي على ذكر وتفصيل المطهّرات والنجاسات، علماً إنّ هذه الأحكام تشمل ثلث الفقه. فكم هناك من أحكام وروايات وأحاديث ونصوص في القرآن، وبحوث معمّقة حول الطهارة تهدف إلى تحقيق قيمة الطهارة والنظافة في الواقع؟ فكيف نجد بلداً إسلامياً يعيش هذه الأحكام، ويقرأ هذه المجموعة المتكاملة من التشريعات، ولكنّه يعيش حالة الابتعاد عن النظافة، وعدم الالتزام بها؟

ترى أين هذه الأحكام من الواقع الذي نعيشه، ولماذا حدثت هذه المفارقة بين الأهداف والوسائل.؟

ولإيضاح ذلك لا بأس أن أضرب مثلاً آخر؛ نحن نعلم أنّ كثيراً من الأحكام الشرعية تهدف إلى تأمين صحة جسم الإنسان، فالله سبحانه لم يحرّم الخبائث إلا لأنها تضرّ بجسم الإنسان وعقله، بل إنّ من الأمور الفطريّة التي أكدت عليها الشريعة المقدّسة، إنّ الإنسان مكلّف في أن يحافظ على جسمه، فهو لا يجوز له ان يعرّض نفسه للخطر. وعلى سبيل المثال، فمن غير الجائز له أن يصوم في شهر رمضان، إن كان الصوم يسبّب له الضرر الجسمي.

وباختصار فانّ هناك العشرات من الأحكام الشرعيّة حول جسم الإنسان، والمحافظة عليه، ولكنّنا -للأسف- عندما نطبّق هذه الأحكام

فأننا لا نفكّر في هدفها، فإذا كنّا نفكر في هدف هذه الأحكام – وهو طهارة الجسم وبالتالي تأمين الصحة والعافية له– لكنّا نعلم أنّ ما يضرّ الجسم من سائر الأمور المتجدّده هو حرام أيضاً.

القيم الشرعية واجبة

ترى لماذا –نحن المسلمين– لا نعتبر القيم الشرعية التي امرنا بها واجبة، بل نحاول أن (ندحرجها) إلى باب الأخلاق، لنقول أنّها مجرّد وصايا أخلاقية غير ضرورية. أليس في القرآن كلمة تأمرنا بالعدالة، وهي: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ (المائدة/٨)

ألا يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات/١٠)، ألا يقول تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ (محمد/١٩)، ويقول: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ (البقرة/١٣٨).

إنّ تلك الآيات وغيرها تدعو إلى قيم من مثل قيمة الحرية، والعدالة، والإصلاح بين الناس، فلماذا لا تأخذ تلك الأمور دليلاً على الوجوب؟

وعلى سبيل المثال أفلا تدل آية ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ على الوجوب؟ فلماذا –عندما نصل إلى الأهداف والقيم– ندّعي انها تعاليم ووصايا أخلاقية، ولكننا عندما نتحدّث عن الأحكام فاننا نهتم بها؟

فلعلّ الواحد منا يجلس شهراً كاملاً ليبحث – مثلاً– في موضوع هل أنّ كلّ زيادة في الصلاة توجب سجدتي السهو، والحكم الصريح في هذا المجال هو أنّ كل زيادة ونقيصة في الصلاة توجب سجدة السهو. ولكنّك

ترى ذلك الشخص غير مستعدّ ولو ليوم واحد أن يجلس ويتفكر في ستراتيجية الأمة الإسلامية اليوم، وهل علينا أن نحارب أم نهادن..؟

في الحقيقة أنا لم أجد بحوثاً في هذا المجال. نعم هناك في الاندية، والاوساط السياسية بحوث، ولكنّها لا تكفي لوحدها. فالفقهاء الذين هم مراجع هذه الأمة، ومدار الأمور بأيديهم، عليهم أن يفتوا في الحوادث الواقعة، وأن يبيّنوا ما هي قيم الدين، وما هي الاولويات في الشريعة المقدسة. وعلى سبيل المثال فهل أنّ الملكية الفردية واجبة، أم هي جزء من أحكام الدين؟ فقوله تعالى: **﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾** (البقرة/١٨٨)، يؤكد على مبدأ الملكية الفردية، ولكنّ الآية: **﴿وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾** (النساء/٥) تدلّ على الدور الاجتماعي للملكية، فلماذا لا نبحث في حدود الملكية الفردية وقوانينها على ضوء هاتين الآيتين الكريمتين؟

وكنموذج آخر فانّ قوله سبحانه وتعالى: **﴿وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ اصْلاَحِهَا﴾** (الاعراف/٥٦)، يدفعنا إلى المزيد من البحث عن مفهوم الفساد في الأرض، والإصلاح فيها. فمن هو المصلح، ومن هو المفسد، وكيف نكرّس الصلاح، ونهدم الفساد؟

أفليست هذه القضايا من واجباتنا؟ إنّها روح الشريعة المقدّسة، وعمق الإسلام، وصبغة الشريعة، فلماذا لا نفكّر فيها؟ صحيح ان الأحكام الشرعية مهمّة كلها، ولكن أهدافها مهمة أيضاً، لسببين:

١- إنّنا في كثير من الأحيان نطبق الإسلام، ولكن تطبيقنا له ليس بالشكل الذي يؤدي إلى الأهداف. ولكي أوضح ذلك اضرب المثال التالي: هل الحج من الأحكام الشرعية أم لا؟ لا ريب أنّه من الأحكام

الشرعية، لقوله عز من قائل: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران/٩٧). وعلى ضوء ذلك نطرح السؤال التالي: هل لهذه الفريضة هدف أم لا؟ لا شك أنّ القرآن الكريم حدّد الأهداف، ولكن هل أنّ المسلمين يبحثون حقاً عن أهداف الحج عندما يمارسون هذه الفريضة؟ الجواب بالنفي طبعاً، فالمسلم يحج دون ان يفتّش عن هدف الحج؛ فأين هي منافع المسلمين في الحج، وأين هي وحدتهم؟

والأدهى من ذلك أنّ الذي يؤدّي الحج ويستهدف من ورائه تحقيق تلك الأهداف المعلنة في الشريعة، يعتبر خارجاً عن الدين في عرف بعض المسلمين!

وكمثال آخر فانّ الزكاة تعتبر من جملة الأحكام الواجبة، ولكن هل نعلم لماذا فرضت الزكاة؟ الجواب: لكي لا تكون الثروة دولة بين الأغنياء منّا، ولكنّنا -للأسف- نؤدي الزكاة بطريقة تكرّس حالة الطبقية في الأمة؛ أي أنّنا لا نأخذ الهدف بعين الاعتبار. وهكذا الحال بالنسبة إلى الصلاة فانّنا نؤديها بشكل بحيث لا تنهانا عن الفحشاء والمنكر، كما يقول تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/٤٥)، فترانا نصلّي دون أن نحاول الوصول إلى هدف الصلاة.

٢- إنّنا إذا فكرنا وبلورنا الأهداف المقدسة، فإننا سنفتّش من أجل الوصول إليها عن وسائل جديدة بالإضافة إلى الأحكام الشرعية؛ فان كانت هناك وسائل جديدة جعلناها -على الاقل- من المستحبات.

الاهتمام بالقيم قبل كل شيء

وتأسيساً على كل ما سبق، فانّ علينا أن نهتم بالقيم. فنحن إذا تعمقنا

في القيم الدينية سنعرف الأحكام، ونطبقها حق تطبيقها، ولم نعـط لأنفسنا الحق في التمييز بين الأخلاقيات وبين الأحكام وسائر الأمور الأخرى.

فعلينا -إذن- ان نؤدّي فرائضنا، وعباداتنا اداءً واعياً، وان نستحضر في أذهاننا -قبل أن نهتم بادائها- الأهداف والقيم المرجوّة منها، لكي لا يكون اداؤنا لها اداءً فارغاً من المحتوى، منعدم التأثير. لأنّ إدراك أهداف الفرائض هو شرط أساسي ورئيسي من شروط ضمان التأثير العملي لها في حياتنا وسلوكنا. وهذا الحكم ينسحب على جميع العبادات، والفرائض، والتشريعات، وخصوصاً تلك التي تحتوي على طابع اجتماعي وأخلاقي من مثل فريضة الحج، والصلاة، واداء الزكاة والحقوق الشرعية.. وما إلى ذلك من فرائض يسهم اداؤها الواعي اسهاماً فاعلاً في تغيير حياتنا وتقويم سلوكياتنا.

الإسلام بين معادلتين

﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً * الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً * وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَيَاةً وَلاَ نُشُوراً * وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً * وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً * وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ (الفرقان/١-٩)

البركة الإلهية

إنّ طليعة الآيات من سورة الفرقان التي خصّصت -فيما يبدو- لبيان دور الوحي في تبصير الإنسان وتوجيهه إلى الحياة الفاضلة، والتي سمّيت

بهذا الاسم للدلالة على هذه الفكرة الواضحة فيها، حيث تأتي الآية الأولى لتبين أنّ الخالق الذي نزّل الفرقان على عبده، هو مبارك، وأنّ بركته وأفعاله الحميدة وتطويره وتكميله لحياة الإنسان كلّ ذلك هو الضمان لتكامليّة الإنسان، وسيره في معارج التقدم والصعود.

ثم يبيّن القرآن الكريم أن مصدر كل خير في الخليقة هو الله تبارك وتعالى، وهو مصدر كل نور للانسان، وكما أنّ الخلق منه فانّ العلم والمعرفة منه أيضاً، ولذلك يقول: **﴿الَّذي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً﴾**.

فلكل شيء قدر، ولكّل شيء بداية ونهاية، وحدود معيّنة، فأي شيء في هذا الكون الرحيب لا يتجاوز حدود ما يرسمه الله سبحانه وتعالى له.

الضعف مشكلة الإنسان

ولكنّ مشكلة الإنسان ضعفه أمام القوى التي يخيّل اليه أنّها كبيرة وعظيمة، كما أنّ مشكلته انهزامه أمام الضغوط، وهذه المشكلة هي السبب الرئيسي في انحرافات الإنسان العملية منها والنظرية على حدّ سواء. ولو أنّ هذا الإنسان اعتمد على ربّه بثقة كاملة، وتوكّل عليه واستوحى منه بصائره في الدنيا، لما وجد الضلال إلى قلبه سبيلاً، ولما وجد الباطل إلى عمله منفذاً، ولكن انحراف الإنسان انّما يبدأ عندما لا يؤمن بالله جل وعلا. فالقلب المنهزم أمام الطبيعة هو القلب القريب من الانحراف، وهو القلب الذي يزرع فيه الشيطان بذور الضلالة والشرك، ولذلك فانّ الله عز وجل يقرّر أن التوحيد هو محور للهداية، كما هو محور

للعمل الصالح، فيقول: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لاَ يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَحَيَاةً وَلاَ نُشُوراً﴾.

الآلهة لا تملك شيئاً

فالآلهة لا تملك –في الواقع– شيئاً، ولأنها لا تملك النفع والضرر فانها لا تملك الحياة والنشور، ولكن الإنسان قد يزعم مع ذلك انّ هذه الآلهة تمتلك الضر والنفع، وقد يتصوّر انّ هذا الصنم من شأنه ان يضرّه لو لم يعبده، وان ذلك الطاغوت يلحقه باذى لو لم يخضع له. امّا الله تقدّست اسماؤه فيوضح ان دليل ضعف الآلهة وعجزها عدم قدرتها على منح الإنسان ما يحتاجه، فعندما يمرض الإنسان ويرقد على سرير المرض، فمن الذي يستطيع أن ينقذ حياته سوى الله؟ ومن الذي يقدر على كشف ضرّه عندما يجأر إليه سوى الخالق؟ ومن الذي يكشف عنه السوء؟ وعندما يمرض انسان آخر عزيز عليه من الذي يتوجّه اليه بقلبه، وبصدق إيمانه، ويسأله أن يتفضل عليه بالشفاء والعافية، أو ليس هو الله القدير القوي؟

وعندما نعلم إن الطاغوت لا يعطينا الحياة، وبعد هذه الحياة لا يملك لنا نشوراً ولا بعثاً من جديد، وعندما ندرك أنه لا يضرّ ولا ينفع، وحتى لو أضرّ ونفع من الناحية الظاهرية فانّه لا يمتلك حياتنا ولا مماتنا ولا نشورنا، فاننا سنتوصّل إلى أنّ الجدير بأن نعبده ونخضع له، ونخلص له التسليم، هو القادر على فعل كل ذلك، وهو الله.

الأبواق الجاهليّة ضد الرسالة

وبعد أن يثبت القرآن القاعدة الأساسية لعدم انحراف الإنسان في الدنيا،

نراه يبيّن لنا الافكار الضالة المضلّة التي تبثّها أبواق الاعلام الجاهليّ ضد القرآن الكريم، وضدّ كلّ رسالة الهية، فيقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾.

فهم يعمدون في البدء إلى تكذيب الرسول ورميه بالكذب، ويتهمونه بالجدل، ويدّعون أنّ أفكاره باطلة، وأنّه يكذب ويفتري على الله تعالى، وأنّ أقواله ليست مطابقة لافعاله. فهم بذلك يستهدفون تحطيم شخصيّته، وسلب ثقة الناس منه.. وكم يكون الإنسان ظالماً عندما يتّهم رجلاً لم يعهد الناس منه ولو كذبة واحدة طيلة حياته، كما يشير إلى ذلك سبحانه في قوله: ﴿فَقَدْ جَآءُوا ظُلْماً وَزُوراً﴾.

وهم مرّة اخرى يتّهمون الرسالة بأنها رجعيّة، وأنّها تستوحي أفكارها من معتقدات السابقين: ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً * قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً﴾.

وقد فشل الكافرون والمشركون في خطوتهم الأولى هذه عندما اكتشف الناس أنّهم الكاذبون، وأنّه لا يمكن لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ومن يسير على خطاه أن يكذب، لأنّه حياته قائمة على الصدق، فهو لا يريد الدنيا، وهي التي عرضت عليه نفسها وجاءت اليه طواعية ولكنّه قال لها: "لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري ما أردته". (١)

وبعد أن أدرك المشركون فشلهم هذا، قالوا كلمتهم الثانية: ﴿وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ لَوْلاَ أُنزِلَ إِلَيْهِ

---

(١) بحار الأنوار، ج١٨، ص١٨٢.

مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيراً * أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾.

فالمشركون ومن أجل أن يتملّصوا من الايمان بالرسالة الالهية، ومن أجل أن يحافظوا على مصالحهم، ادّعو إنّ الرسول ينبغي أن يكون ملكاً، وأن تكون له أجنحة يطير بها في السماء، وإنّ من المفروض أن يكون جبرائيل ملازماً له، وأن يقوم بعمل خارق، ويهبط بكنز من السماء، أو أن تكون له بساتين ومزارع وحقول يأكل منها.

وعندما ضاقت على بعضهم الحيَل، اتّهموا الرسول بأنّه رجل مسحور، دون أن يفرّقوا بين السحر والرسالة، ولذلك وصفهم تعالى بأنّهم ظالمون: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُوراً﴾.

معادلة الرسالة

ثم يقول عز من قائل: ﴿انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾ ذلك لانّ معادلة الرسالة هي معادلة جديدة، وأن طبيعتها تختلف عن طبيعة الاوضاع السياسية التي كانوا يعيشونها، ولكنهم لا يعرفون كيف يقيّمونها، ولذلك تراهم يضلّون السبيل، ففي يوم يقولون كلاماً، ثم لا يلبثون غداً أن يتركوه إلى كلام آخر. وهذه هي طبيعة المشركين والكافرين في كل عصر ومكان.

الإسلام بين تفسيرين

ابتلي الإسلام طيلة تأريخه ببلاءين، كل بلاء منهما أشدّ خطراً من الآخر؛ البلاء الأول يتمثّل في التفسير الطاغوتي له، والبلاء الثاني هو التفسير القشري للاسلام.

ونحن لا نستطيع أن نقول إنّ أحد البلاءين كان أقل خطورة من التالي، كما لا يمكننا أن نفصل بين هذين النوعين من التفسير للإسلام. ونحن لا يعنينا هنا بيان العلاقة الوثيقة، بل العضوية بين هذين النوعين من التفسير الخاطئ لرسالات السماء، بل إنّ الذي يهمّنا بيان الصفات الاساسية لهما.

نظرة الطغاة إلى الدين

إنّ الجبابرة والطغاة يحاولون دائماً أن يشيعوا أن دين الله سبحانه بعيد عن السياسة، وأن السياسة بعيدة عن الدين، حتى قال قائلهم: (لا دين في السياسة، ولا سياسة في الدين). فهؤلاء يرون أن المسجد للمصلّين، وأننا لا يمكن أن نسمح بممارسة السياسة في المساجد. كما يقولون بانّ الدين ما هو إلا تجربة شخصية بين الإنسان وربّه، وإنّ هذه التجربة متنوعة ومتعدّدة ولا تخضع لأية ضوابط ومقاييس، كما قال بذلك (وليام جيمس) مؤسّس المنطق الوسيلي السائد الآن في العالم الغربي.

فهؤلاء يرون أن الدين تجربة أخلاقية، وأن الشيء المهم فيه أن يهذب الإنسان أخلاقه أمام الآخرين، وأن لا يشكل خطراً عليهم.

ومن المعلوم أنّ أجهزة الطغاة تقوم بتأكيد وتكريس هذا المنطق، كما تحاول مؤسّسات التربية والاعلام والتثقيف وصنع النظريات، تكريس هذه الفكرة الخاطئة عن الدين بين الناس، وتربية أجيالنا على هذا الاساس.

النظرة القشرية إلى الإسلام

وهناك فهم آخر هو الفهم القشري للإسلام، وبموجب هذا الفهم فانّ الدين ليس سياسة، وليس رفع الظلم عن المحرومين، وليس عمارة الأرض، وانقاذ الإنسان من الفقر والمرض والتخلف.. بل هو ان تجلس في المسجد وأن تتوجّه إلى قبلتك، وتؤدّي فريضة الصلاة!

ولمدّة ألف وأربعمائة عام دفعت الأفكار القشرية المسلمين إلى أن يتصارعوا على قضايا لو طرحت وعرضت على القرآن والأحاديث لبدت مدى ضحالتها، فمن مزايا وخصائص الفكر القشري ما يلي:

١- انه يحرّم على الإنسان البحث عن الإسلام، ولا يجوّز له قراءة القرآن، والروايات، والعودة إلى التأريخ والسيرة وطريقة الأئمة عليهم السلام، وما إلى ذلك.. حتى إنّ أتباع هذا الفكر يسعون من أجل ابعاد الإنسان المسلم عن الفقهاء، ويحاولون إقناعه بشتى الطرق بأنهم ليسوا مؤهّلين لفهم الإسلام.

٢- يحاول أصحاب هذا النوع من الفكر بمختلف الأساليب أن يحوّلوا نظر الإنسان من القضايا الرئيسية التي يعيشها إلى القضايا الجانبية. وعلى سبيل المثال؛ فانّ قضية وجود امبريالية عالمية، وقضية سحق الأمم والشعوب

ليستا قضيتين مهمتين، بل انّ القضية المهمة هي انّه ليس من شأن الإنسان المسلم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والثورة ضدّ السلطات الطاغوتية الجائرة لاعادة الإسلام إلى الحياة. فالإسلام ليس من واجبنا ان ندافع عنه، لأن الله تعالى هو الذي يتولى الدفاع عنه وعن المسلمين!

ونحن نسأل: اذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يسمحان لنا بالتصدّي للحكم والسياسة، فهل يتوجّب علينا -مثلاً- أن نبحث في الازقة والشوارع عمّن يتختّم بخاتم ذهب، ونتشاجر معه لانّ لبس الذهب محرّم على الرجال؟!

وفي كثير من الأوقات نجد ان هؤلاء يخصّصون الليالي والايام، ويكتبون الكتب، ويحرّرون الرسائل حول هذه المسائل الهامشية، ومن ميزتهم أنّهم حدّيون حيث يعتقدون أنّ العالم كلّه في ضلال، وأنّهم كلّهم في جهنّم، وهم فقط أهل الجنّة وكأنّهم اشتروها!

وهناك ميزة أخرى تميّزهم وهي أنّهم يحلّلون لأنفسهم ما يشاؤون؛ فالتهمة عندهم حلال بل هي واجب، والغيبة عندهم جائزة بل هي فريضة.. ومن أفكارهم أنّهم يحاولون إلهاء أنفسهم بأيّ شيء عن الجهاد في سبيل الله عز وجل، والعمل من أجله، ويكرّرون قولهم بانّ الدين لا سياسة فيه، مثلهم في ذلك أصحاب التفسير الطاغوتي للإسلام.

وبين هذين التفسيرين يصبح الإسلام الحقيقي غريباً، لان القوة بيد هؤلاء الجبابرة؛ فالاذاعات، والشبكات التلفزيونية، والسينما ووسائل البطش والتضليل والتزوير كلّها بيدهم، كما انّهم يمتلكون سلاحاً آخر هو ترسيخ حالة الركود والجمود، فتتوقف الطاقات الفكرية في الامة، لذلك نجد انّ هذا النوع من الأفكار قد سبّب تخلّف المسلمين.

كما أن حالة الركود والجمود هي التي تسمح للاستعمار باستثمار شعوبنا، واستغلالها، ونهب ثرواتنا نهباً منظماً، وهذه الحالة تساعد بشكل فاعل أمثال هؤلاء لأنهم يأمرون الناس بالجلوس في بيوتهم، ويقولون لهم إنّ من يحمل هموم الناس ويدافع عن حقوقهم مجنون، وإنّ الذي يقتل دفاعاً عن وطنه ليس بشهيد.

حقيقة الإسلام

من هنا يتطلب منا ان نتبرأ من تلك المفاهيم المغلوطة، التي هي ليست من الإسلام في شيء؛ فالدين هو الجهاد، والايمان بالله، والكفر بالشركاء، ورفض الانداد. فعندما يقول الإنسان المسلم: لا إله الا الله، فانّ عليه أيضاً أن يقول: لا للحكومات الظالمة، لا للمجتمع الفاسد، لا للقومية والاقليمية، لا للماديات كلّها.. عندما تقول لا إله الا الله، فانّك ترفض كل ذلك، وعندما ترفض يتوجّب عليك أن تدخل في حلبة الصراع، والصراع هو أن تجاهد وتبذل وتضحّي. وهذا هو الدين في حقيقته، فمنذ البدء يبدأ الصراع ضد قادة الأنظمة الفاسدة، وضدّ إرهابهم، وسجنهم، وتعذيبهم.. وهم بدورهم سوف يوجهون إلينا التهم بالكفر والضلالة، وستواجهنا سياط الطغاة وتتلوى على ظهورنا، ولعل الشهادة تكون في انتظارنا. مع كل ذلك لابد أن نصبر ونستقيم، هذا هو منهج الانبياء والرسل والائمة عليهم السلام وجميع الصديقين والصالحين.

وبكلمة، يجدر بنا ان نجسد الإسلام في حياتنا كما هو، حيث نستقيه من مصادره الخالصة الأصيلة، وان لا نهادن في ديننا من خلال التشبث بتلك الأفكار القشرية، أو الاستسلام لسلطة الطغاة. ذلك لان الدين أغلى وأسمى قيمة لدى الإنسان.

الإسلام وسيلة النهوض

من الممكن أن تعكس الحركة الفردية والاجتماعية صورتين متفاوتتين للدين؛ صورة باهتة وضعيفة وفارغة المحتوى، وصورة أخرى تعمها الحيوية والفاعلية والنور. وكلما اتسعت مساحة الصورة الأولى للدين في الواقع الاجتماعي، كلما تراجع عدد المنتمين إليه، فضلا عن نوعية الانتماء. وكلما توضحت الصورة الثانية، كلما دخل الناس في دين الله أفواجا، وتحرك الواقع الاجتماعي إلى الأمام، فإذا بالناس يضحون بكل غالٍ ونفيس في إطار الذود عنه.

يا ترى أين نحن اليوم من هاتين الصورتين؟ بل وما هما؟

القرآن المجيد وفي أكثر من مناسبة يحدثنا بتفصيل أو اختصار رائعين عن هذا التنوع ذي الحدين المتناقضين.

وبادئ بدء؛ لابد من التأكيد على أن الله سبحانه وتعالى يعتبر الدين المحور الأساس الذي ينبغي أن تدور حوله الحركة الاجتماعية، باعتبار أن الدين يجسد فطرة الله التي فطر الناس عليها، وهي الواقع غير القابل للتبديل أو التغيير. فالإنسان قد خلق، وخلق معه الإحساس بالحاجة إلى الركون إلى عقيدة ما. والتاريخ يشهد ويؤكد على أن ما من عصر أو زمان أو مكان، إلا وكان الناس فيه متدينون بدين. ونحن اليوم نجد في كل مدينة أو قرية مركزاً للعبادة، سواء كان هذا المركز معبداً للأوثان أو كنيسةً أو مسجداً.

غير أن الله تبارك وتعالى حث الإنسان ولا يزال على ضرورة اتباعه الدين الحق بعد الاقتناع به قلبياً وفكرياً.

والقرآن الكريم يشير في عدد من آياته المباركات إلى إن مشكلة الإنسان والإنسانية لا تكمن في أصل الدين واعتناقه، بقدر ما تكمن في شكل هذا الاعتناق، وفي نوعية وكيفية الالتزام به.

فقد يكون الدين سلاحاً قاتلاً بيد الطغاة والانتهازيين، ووسيلة للقمع، وطريقاً لاستلاب الناس حقوقهم.

وقد يأخذ صورته الحقيقية وبعده الصادق وثمرته الطيبة، حيث يتحول إلى جوهر وإطار للخلق الفاضل ووسيلة نحو تحقيق المدنية السامية.

لقد طرح اليهود عبر التاريخ الدين وصوروه بصورة قشرية باهتة ومفتقرة إلى أية قيمة أو محتوى، وتشير الوثائق التاريخية المكتشفة إلى أن أحبارهم وحاخاماتهم حينما زوّروا التوراة ودوّنوا التلمود –شرح نصوص التوراة– كان همهم الأكبر المحافظة على عنصرهم المتشرذم بفعل السبي البابلي والتأكيد للبشرية على أنهم أصحاب حضارة تاريخية ضاربة في القدم. وهذا السعي الباطل أنساهم القيام بمهامهم الرئيسية بوصفهم علماء دين، والآن لا يرى القارئ لكتبهم غير الأباطيل والتقول على الله والأنبياء والسرقات الأدبية المفضوحة، بالرغم مما قام به المتأخرون من علمائهم من حذف وتعديل في نصوص التوراة.. لاغراض سياسية ودوافع حقوقية!!

وانعدام المحتوى هذا أدى باليهود إلى رفع عقيرتهم حينما بدّل الله سبحانه وتعالى قبلة المسلمين إلى الكعبة المشرفة، بعد أن كانت إلى المسجد الأقصى المقدس، قائلين بكل وقاحة بانتهاء الدين، وكأن الدين عندهم مكان أو جهة، وإذا انتفى المكان انتفى القانون وانتفت الفطرة الإلهية.

ولقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّآئِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة/١٧٧) إن موضوع تحويل القبلة عاد بالفائدة على المسلمين بفوائد عديدة، منها: أنه كشف لهم خطل فكرة التقيد بالمكان، وأن الدين موضوع أقدس من أن يحده مكان. فمادام الرسول قد بعث للناس كافة، فهو يعم الأرض كافة تبعاً للتنوع واختلاف إقامة الناس وترحالهم. كما كشف لهم سر صمت اليهود تجاه هذا الدين الجديد، بمعنى ان الآية المتقدمة الذكر كشفت عن عدو للود بين ظهرانيهم يبطن عداءه؛ عدو لا تجد القيم الصالحة أي متسع لها في قاموسه وعرفه. وهذا الكشف يعد بحق معجزة من معاجز القرآن الكريم، كما كشف للمؤمنين بأن ديانة اليهود ليست ديانة إلهية، بل هي ديانة مصلحية للتغطية على مفاسد وعنصريات. ولو كان الأمر غير ذلك لما اهتموا للأمر كثير اهتمام أبداً، باعتبار أن الديانة الحقة هي التوجه الحقيقي إلى الله سبحانه وتعالى والى المثل العليا، لا التوجه الرمزي إلى هذا المسجد أو ذاك.

ما هو الحق؟

يعّرف الله سبحانه وتعالى الحق والخير بأنه الايمان بالله والآخرة، والتصديق بالرسل، وأن هذا الايمان لابد أن ينتشر ويصبغ الأعمال جميعاً بصبغته. فمن آمن بحقٍ وكفر بحق آخر، فهو بمثابة من لم يؤمن بكل حق بتاتاً، لأن الحق

كل الحق هو الذي يجب أن يكون محــور الايمان. فمن آمن بالله وأنكر الآخرة، أو آمن بالآخرة وأنكر الرسل أو رسولاً منهم، كان كمن لا يؤمن بالحق كله. وبمعنى آخر؛ لا يمكن أن تمثل الازدواجية في الايمان طريقاً إلى الحق المطلق، ومثل هذا المرض وهذه العقدة النفسية والفكرية قد أصابت بني اسرائيل حينما بعث رسول الإسلام الأكرم محمد صلى الله عليه وآله، إذ أن العصبية والجاهلية هي التي تحكمت بحركتهم، علماً إن اليهود كانوا يعرفون أكثر من غيرهم النبوة الحقة لنبينا صلى الله عليه وآله.

ثم إن القرآن المجيد يشير إلى نماذج كثيرة للغاية والتي تجعل من إيمان الفرد أو المجتمع إيمانا ذا بعد واحد، كما تصور لنا آياته الكثيرة الأخرى نماذج مغايرة من شأنها أن تحول الإيمان إلى شرك، أو شرك خفي على الأقل.

ومن هنا يتضح لنا بأن الخط الفاصل بين الايمان والشرك لا يعدو أن يكون فاصلاً دقيقاً للغاية.

فالدافع إلى طلب المال قد يكون الإيمان، وقد يكون نقيضه وهو الشرك. ففي الحالة الأولى لعل الدافع يكون الكدّ على العيال أو لجمع المال للتبرع في سبيل الله، أو لتحقيق الاكتفاء الذاتي وعزة الشخصية. أما الحالة الثانية فحيث يكون طلب المال من أجل جمع المال ومنعه من الوصول إلى أصحابه، أو تجميد فاعليته كنعمة من نعم الله.

فالعمل كما العقيدة، له بعدان متفاوتان؛ فجانب الخير تمثل في أحد نماذجه، في أن تبرع الإمام علي بن ابي طالب عليه السلام وأهل بيته الأبرار عليهم السلام بطعامهم للمسكين واليتيم والاسير، حتى خلّد الله تبارك وتعالى هذه الحادثة الكريمة في القرآن الكريم، وجعلها عبرةً لمن يتخذ الايمان طريقاً نحو الحق، لأن هذا العطاء كان إيثاراً على النفس وحباً للفقراء..

ولكننا نرى - وللأسف الشديد - إن بعض الناس ينفقون أموالهم ويساعدون الفقراء، غير أنهم لا ينفقونها انطلاقاً من نية مخلصة ومؤثرة، بل هم يبذلونها في الحفلات العامة، حيث الدعاية وعدسات التصوير وحضور الجمهور !.. فهم لا ينفقون الدينار حتى يضمنوا لأنفسهم أرباحاً مضاعفة؛ بمعنى أن هؤلاء يتخذون من الفقراء والمساكين وأوضاعهم المؤسفة جسراً للعبور نحو تحقيق أطماعهم وأغراضهم الدنيئة.

ففي الوقت الذي يقول الله سبحانه وتعالى، حينما يتناول موضوع بذل المساعدة للضعفـــاء: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلاَ دِمَآؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾ (الحج/٣٧) نجد أن الانتهازيين والنفعيين لا يحسبون للحصول على التقوى وتحقيق إرادة الله في الإنفاق أي حساب، وهم بذلك -شاؤوا أم أبوا- قد خضعوا لشيطان الشرك في داخلهم.

وهنا لابد من التأكيد ان الله سبحانه وتعالى يوجهنا إلى أخذ الكلمات القرآنية بمعانيها التامة، فهو يأمرنا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة.. وبطبيعة الحال فإن إقامة الصلاة لا تعني تأدية الفرائض اليومية فحسب، بل إن الأمر الإلهي المقدس يعني أول ما يعني إقامة الصلاة مع كل الواجبات المحيطة بها، ويعني إقامة المجتمع على أساس الصلاة.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (العنكبوت/٤٥) دليل أكبر على ما نذهب إليه، حيث إن روح الصلاة والتوجه إلى معانيها الفاضلة هو العامل المساعد والضامن الأول لتوافر معطياتها الخيرة، وإلا فإن مجرد القيام والقعود والركوع والسجود الخالي عن الروح والنورانية لا يفي بالغرض المقدس أبداً.

ونحن إذا نظرنا إلى مجتمعاتنا المسلمة، نلاحظ إن السبب في تراجع مدنيتها

يكمن في تمسكها بقشور العبارات القرآنية والدينية، بمعنى إنها بالتزامها بالقشور وحالة الفراغ قد حكمت على نفسها بالالتزام بنوع باهت في الثقافة، لم يكن الشارع المقدس يرضى به. فهذه المجتمعات لم تبحث عن المصاديق الواقعية والصحيحة للدين الإسلامي الحنيف التي تدعي الانضمام تحت لوائه، ولم تعتنق أو تلتزم بالثقافة المدنية الغربية -مثلاً- لتحقق على الأقل ما حققه الغربيون من تقدم مادي ودنيوي. ولذلك نرى التراجع يتكرس في حركتها كلما تقدم بها العمر، وهذا الواقع سيظل على ما هو عليه ما لم تنتبه هذه المجتمعات إلى حركتها وتصلح من فهمها لحقيقة الدين الإسلامي.

ومن المصاديق الأخرى التي يثبتها الله تبارك وتعالى لدى تعريفه مصطلح الحق، الصبر، صبر المؤمنين في البأساء والضراء، وهذه في الحقيقة من أجلى التعريفات واعودها نفعاً على الحركة الاجتماعية.

فالإنسان والمجتمع المؤمن هو من تتوافر فيه صفة الاستقامة؛ الاستقامة التي تستدعي التضحية بمختلف أشكالها وألوانها، دون من تزل قدمه بمجرد إثارة شبهة أو ضغوط.

إن البأساء والضراء حالتان موجودتان مادامت الحياة موجودة؛ إذ هما احد المقاييس المهمة التي يثبت فيها المؤمن إيمانه، فيصح إطلاق اسم المؤمن والمتقي عليه، أي يكون اسماً على مسمى.

حدود الدين

لقد أخطأ الكثير من الناس، والمثقفين على وجه الخصوص، حينما حددوا الدين بحدود شخصية، وفسروه باعتباره مجموعة من المعتقدات

والحركات التي لا تخرج عن نفس الإنسان. فترى قصارى همهم وأعمق اجتهادهم يدور حول العلاقة الزوجية، وما أشبه. فهم يقضون أروع ساعات عمرهم في بحث مسائل حلق اللحية وتقصير الشارب، أو كيف تتحجب المرأة.

بلى؛ إن الدين الإسلامي يفرض للعلاقة الزوجية احتراماً بالغاً، ويعتبرها واقعاً ينبغي أن يكون ضمن أصول دينية واضحة.

ولكن دين الله لم ينزل لحل هذا الموضوع فقط، فقد يكون الرجل ذا لحية وزوجته ذات حجاب، وانهما يذهبان إلى المسجد على قدم وساق؛ إلا أن هذا الرجل يتعمد الغش في السوق، ويقول الكذب ويأكل الحرام، أو يذل نفسه للظالمين، أو يتجسس لهم ضد المظلومين، تصور هذا الإنسان حينما يأكل الحرام ويملأ بطنه منه، وفي الغد القريب يصبح أباً، ماذا سيكون واقع ذريته؟

إن آيات القرآن الكريم عموماً لا تتحدث عن قضايا قشرية أو تكتفي ببحث موضوع واحد، بل هي وحدة متكاملة، تهتم قبل كل شيء بالحق والايمان والتوحيد، وبعلاقة الإنسان بخالقه المقدس، وبعلاقة الإنسان بالرسل والملائكة والغيب. والطبيعة والتأريخ، كما أخذ جانب كبير منها علاقة الحاكم والمحكوم وعلاقات الشعوب بين بعضها. حول هذه الأمور ذات الأهمية القصوى بالنسبة لحركتنا ومصيرنا يحدثنا القرآن، ولكننا تركناه كلّه وتمسكنا بظواهر لا تسمن ولا تغني من جوع!!!

وبكلمة أخرى؛ إن هذا الدين الذي اتخذه المؤمنون الأوائل وعلى رأسهم أهل البيت عليهم السلام وسيلة لتحرير الشعوب من طغاتها، ووسيلة لتحكيم الحق والعدالة، وتوطيد أصول الحرية وبناء المجتمع

الفاضل، قد حوّلناه نحن في هذا الزمن إلى مجموعة من القضايا الرمزية الباهتة، وإلى مجموعة شعارات لا يعدو مثلها مثل الطبل المعاب...

شهادة الواقع

تراجعنا هذا يأتي في زمن يسير فيه أعداؤنا باتجاه بناء تكتلات واسعة ومؤثرة في إحكام السيطرة على الحركة البشرية بشكل عام، وحركتنا وواقعنا نحن المسلمين بصورة خاصة.

لقد اتحد هؤلاء الأعداء تحت إطار تنظيم التجارة العالمية، رغم اختلافهم وتفاوتهم في نقاط عديدة، أقربها إلى الذهن الاختلافات التأريخية والعسكرية والقومية والدينية والجغرافية، ولكنهم رغم كل ذلك على قناعة تامة بأن العامل الاقتصادي والحركة التجارية من الممكن لها أن تكون عامل توفيق واتحاد فيما بينهم. ومجمل الحكومات النامية والمسلمة منها بالذات، حتى في حال انضوائها إلى هذا التجمع، فهي لن تعدو أكثر من متفرج أو تابع غير مقرر له صوت محترم. إذ هي لا تمتلك الوسيلة للتأثير، وإذا ما امتلكت في يوم من الأيام فهي ذاتها أعدمت هذه الوسيلة قوة التأثير، تماماً كما أكد وزير إحدى الدول العربية من قبل، ضرورة عدم اعتبار أو اتخاذ النفط سلاحاً !!

قبـل حوالـي ثلاث مائة سنة كان الأوروبيون يتقدمون بنهضتهـم الصناعية ويرتقون سلّم التطور ويطوون المراحل العلمية الواحدة تلو الأخرى، وهم الآن قد أحكموا سيطرتهم. في ذلك الوقت حينما كان السلطان العثماني يخبر بالنهضة الأوروبية يكتفي بالقول: "الإسلام يعلو ولا يعلى عليه"، وكان رجال المراكز العلمية بشكل غالب في مجتمعاتنا

يعكفون على الجدل النظري في مسائل اللغة وثوابت الفقه التي لا فضل لهم في وجودها أبداً (!) والتأريخ يؤكد بكل صراحة بأن مثل هؤلاء كانوا يتهربون علناً وعملاً عن محتوى الدين الأصيل، وعن الصدق والصبر والتعاون والايثار وإقامة الصلاة.

إن المسؤول الأول عما حدث ويحدث من فجائع في الشارع المسلم، وعما سيحدث من تراجع هائل في الشخصية المسلمة ودور المسلمين في المستقبل؛ هو نحن بالدرجة الاولى بسبب انشغالنا في البحث في قضايا ثانوية، وبسبب اكتفائنا برفع الشعارات وتكالبنا على المناصب والاسماء، وبسبب عدم تعاوننا أو اتحادنا، بل وتمزيق بعضنا البعض. وهذه الأمراض كلها تمثل واقعا يتناقض وما نصّ عليه الدين وأوصت به الشريعة المحمدية.

إننا الآن نقف على مفترق طرق؛ فإما أن نعود إلى إصالتنا الإسلامية، وأن نعي ونلتزم بأوامر الدين ومناهيه، فنكون بذلك قد وضعنا اللبنة الاولى في صرح البناء المقدس، وإما أن نتنازل عن كل شيء وبذلك تكون الطامة الكبرى.